

حبيبتني
بكما
محمد السالم
رواية



صفحة كتب

facebook.com/the.boooks

دار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

الطبعة الثانية

فصلاً



الرجاء شراء الكتاب من المكتبات
دعها للكاتب ولكي لا تضيع مجهوداته سدياً

مع تحيات فريق صفحة كتب

www.facebook.com/the.Boooks

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ISBN 978-614-02-0714-1

الطبعة الثانية

1434هـ - 2013م

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 1 00961

ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان

فاكس: 00961 1 786230 - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: <http://www.asp.com.lb>

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية
أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة
أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إهداء

إلى صديقٍ وفِيٍّ
لم يتخلَّ عني يوماً..
إلى الحزن..



صفحة كتب

facebook.com/the.boooks

There are a lot of snobs out there who disregard these books“
(romance novels), but they fulfill a need. I am happy and fulfilled in
what I am doing and readers love them. And why not? They are
(harmless and they are fun.”(1

.Sara Craven 1

تحتفل روايات الحب - في الغالب - بهزيمة الرجل أمام الأنثى. فلا شيء في الحب أقوى من تسلط الأنثى. وحدها هي من تستطيع تمزيق الرجل وبعثرته ثم تجمعه وتشكله مثلما تريد، أما هو فعليه أن يحبه فقط. تلك المخلوقة الناعمة التي تدعى بالأنثى تستطيع بابتسامة فقط أن تجعل أذكى وأقوى رجل على الأرض يركع على ركبتيه أمامها كقط أليف!

(1)

ها أنا أكتب من جديد. ها أنا أسطر لك أنينا من حنين. ها أنا أضعك نقطة على الحرف وأكتبك كلمة على السطر. ها أنا العاش البسيط أدون لك كلمات عشقٍ عظيم وأرسم لك فضاءً في مجرة الأد بدون أدبي، وأفصح سري بإرادتي، وأحفر قبراً يتسع لي في مقبر كتاباتي وأوراقتي.

معارك كثيرة خضتها من أجلك، متحدياً قلبي ودفترتي، فالكتابة فيا يا مهلكتي لا تنصفها أبجدية الحروف، وأحتاج للغة جديدة فريدة مبتكر لتكتب فيها خصالك ولترتل بها صفات ملائكية طاهرة وجدتها فيك ولكني لا أعرف كيف للكتابة طريق آخر غير طريق الجنون، فلك اعتذار يا حبيبتي حين تأبى الكتابة من إتمامك ولا تقوى الكلمات على سردك.

أكتب وأمحو، وفي أغلب الأوقات أكتب وأبكي على حبٍ لك في قلب وعشقٍ لك في لا زلت أشعر به هنا في فؤادي، وعلى روحٍ تحتضر دونه

مهما اجتمعت حولها أسبابُ السعادة التي تغبطُها كلُّ الأرواحِ الأخرى.
عشراتُ الدفاترِ مُزّقت، ومئاتُ الكلماتِ شُطِبت، كي أجعل منك أميرَ
الحكايا وسيدة قصصِ الحبِّ والرواية. فأنتِ أنثى تتوه بكِ البداة
وتتشبّثُ بذكراكِ تفاصيلُ الحكاية. أنتِ يا أنثى خلقتِ من طين كجد
الخلق، ولم تُرسلي من السماءِ بسلسالٍ يميّزُكِ عن البشر، ولكن هُنا
شيئاً آخر يميّزُكِ عن جميعِ نساءِ الكون، شيئاً لم يره أنسٌ قبلي، وا
يفقه فلسفتهُ ماردٌ كماردٍ عشقي. أنتِ يا أنثى الإثارة، يا من تميا
لحسنكِ ألفُ رقبةٍ وقامة، ويا من تتقنُ فنون الغواية بدون قصدٍ أو إرادة
من يقوى على حبكِ ومن يمتلكُ الشجاعة لمقاومة ثورة خصركِ.. تقتحمِ
الصفوفَ بردفٍ يبعثُ الدهولَ في أعين الإناثِ قبل الرجالِ، وبلثامٍ يه
تضاريس وجهٍ يرسلُ للسماءِ مئاتَ الأمنياتِ من قلوبِ نساءٍ ورجالٍ، ف
يحسُدُنكِ على هذا القمرِ المرسومِ في محيطِ محياكِ، وهم يغبطون ذال
الرجلُ الذي يتمتعُ في الليلِ بتقبيلِ محياكِ.

أنتِ أنثى غيرُ عادية، تضربين القلوبَ بقامتكِ القصيرة، وتعيد
ترتيب الكراسي على الطاولاتِ المستديرة لتتوجه أنظارُ الجالسين لا
ولتبهرين بشرقيتكِ رجالَ الغربِ والشرقِ، وتتحدين بجمالِ عينيكِ، جما
نساءِ الأندلسِ وجنوبِ الأرضِ.

وما حديثي يا سيدتي يفي وصفَ عينيكِ، فذلك السوادُ الطاغي على
بؤرة عينكِ أشبهُ بالثقبِ الأسودِ في فضاءِ المجرة، يجذبُ كل من حو

ويرميه في شقٍّ آخر للكون، بعيداً عن كل افتراضيات العلم، حيثُ
يوجد.. إلّا أنت.

كُنتِ ولازلتِ سيدتي، سيدتي اللطيفة الجميلة التي تأسرُ قلبه
بخجلها الكبير وبراءةٍ تعابير وجهها حين تعلو وتيرة الغزل فيها
تضيئين نجومًا في سمائي بابتسامةٍ يطيّبُ بها السهرُ والسهُو عر
جميع الخلق، وتجعلين الحزن يلعنك والهم يشتّمك حين تقتربين أكثر
مني وينجلي كل حزني وهمي.

تجيدان رسم الحب في عينيّ حين أنظرُ لك وأرى كم هما جميلتان
عيناك.. عيناك اللتان كانتا كل أسباب حبي وكانتا الهاوية التي وقعتُ
فيها في فخ الغرام. كُنتِ نبضة الحب الأولى في قلبي، ابتسامة العشوّ
الأولى على ثغري، والسيدة الأولى التي حطّمت أبواب قلاع حبي
الحصينة، ولازلتُ لك ذلك العاشقُ المحروم منك ومن قربك.. من أبد
حقوقه بالعيش معك.

أربعُ سنين مرت، أربعُ سنين عشتُها في ألمٍ وحزنٍ وشقاء، أربعُ
سنين يا حبيبتي منذُ أن رحلتِ ومنذُ أن عشعشتِ عناكبُ الحزن ف
صدرتي. كيف لك يا طيبة القلب أن ترحلي هكذا، دون وداعٍ على أرصف
القطاراتِ الراحلة لأراضي الغياب، دون تذاكر عودةٍ لوطنٍ يحتاجُ إيمان
ووفائك لحدوده التي سلّيت منها غيومُ السعادة وأمطارُ الفرح وشم
الحب حين رحلتِ، وأظلمت سماؤه بالسحب السوداء التي تبرق بالخوا

والهلع في كل لحظة ينبض بها قلبه بحب جديد، فهو من بعدك ؛
يخاف كل نبضات الحب، يخاف التورط بحكاية أخرى لا تمحي م
وجدانه حكايتك.. فأنت قصة خيالية لا تتكرر أبدًا ولن تُرى حتى فه
أجمل الأحلام!

رحلت يا سيدتي دون أن أسمع صوت خطاك نحو باب الغياب، دون
أن أسمع صوت باب الحب يُغلق، دون أن أرى حقائبًا تجمع وترسل
ودون أن تضعي لي رسالةً على طاولة المطبخ! ونسيت في ليلة الرحيا
أن تضعي لي مفتاحًا آخر.. لباب العودة الكبرى!

أشعر بأنني في غيبوبة لا يفكر عقلي فيها إلا بك، لا أريد الإفاقة
منها، ولا أسعى للاستيقاظ منها! فما الحياة تعني لي شيئًا الآن، وما
الحياة نعمة إن لم أكن في أحضانك الآن!

الغيبوبة يا حبيبتني نعمة من الله حين يهبها لمن تُسلب منه سعادته
تحت مسمى ما يدعى عادات مجتمع وتقاليده! حين يكون الواقع مخيب
لأماله وحين تكون الأحلام أجمل وأرق على قلبه الحزين!

أشعر بأنني غريب على هذه الأرض رغم أنني تربيت على ترابها
أشعر أنني عابر سبيل مر على هذه الواحة، رغم أنني تسلقت كثير
نخلها.. أشعر بأنني لا أعرف من أنا حين أكتب لك فأتوه في أسالي
الكتابة وتراوغي الحروف والكلمات.

لطالما كنت السبب الوحيد للكتابة، وحدك من علمتني كيف أروِّد

كلماتي، حينما كانت الكتابةً طريقًا جميلًا نتَّخِذُهُ لنطلق ما لم تقدرُ علمه
بوجه.. ألسنُتنا!

أَمْشِي وحيدًا على هذا الطريق الطويل الحزين، وأكادُ أموت حزينًا
من همٍ توحَّدَ بي! رحلتِ أنتِ ولن تنفُعنِي كل محاولاتِي البائسة فمِ
استردادِ حقي بكِ، رحلتِ ولم أجدَ خيطًا يعيدُنِي لطريقك.. رحلتِ دون أن
تقولِي «إلى اللقاء»، أو حتَّى «الوداع».. ألا تعرفين أني رجلٌ شرقي
يموتُ قهرًا حين تسلبُ منه أحلامه ويثورُ غضبًا حين يحالُ بينه وبين
رغباته! ألا تعرفين أني رجلٌ عربي! إن عشق.. أدمن! وإن أدمن.. تورط
وإن تورط.. تمرّد! وإن تمرّد.. تمرّد!

لا أياس عن طموحي، ما دام الهواء ينفخُ رنَّتِي.
قطعنا وعودًا كثيرة معًا وأطلقنا في السماءِ أمنيّاتٍ كثيرةٍ وعميقة
سويًا، ورتّلنا في آخر الليلِ دُعاءً طاهرًا عذبًا متبادلاً..
ولكن كل شيءٍ تغيّر الآن ... وعودنا كانت غباءًا!
وأمنيّاتنا راحت هدرًا وجفاءً...

ولكني لا زلتُ أدعو لكِ ربي بأن يُضَحِكَ شفتيكِ دائمًا وأن يكون ما
في أي مكانٍ كُنْتَ وفي أي مكانٍ تخبئين فيه.. عني!
أتساءلُ أحيانًا.. أَكُنْتَ تُحِبِّينِي أكثرَ، أم أَحَبِّتُكِ أنا أكثرَ؟..

أتساءلُ وأنا لا أبحثُ عن جوابٍ.. فلو أنكِ أَحَبِّتَنِي كما أَحَبِّتُكِ، ل
كان سُؤالي بهذه الصيغة، صيغة الماضي الذي لا أزالُ أعيشُ على

ذكراه ولا أزال أتنفسُ عبيره رغم قسوة حاضري وضياحِ سعاد
مستقبلي دونك.

أناقضُ نفسي حينما أكتبُ لك، كتناقضُ العشق والكراهية، ولكنني
أكرهُك أنتِ بل أكرهُ غيابك ورحيلك عن عشقي.. حين ابتعدتِ دون ساء
إنذار ودون أن تأخذي مني كل تذكاري يفتحُ للحنين أبواباً ترهقني دون
وتؤلمُ قلبي الذي يتأملُ رجوعك كشعاعٍ لشمسٍ نهار العيد أو كقاء
لعودة الطيور المهاجرة من وطن الشتاء أو حتى كمطرٍ يهطلُ فوق
الأبواب.

ليتكِ مُتاً! ليتكِ في قبرٍ وُضِعَتْ، لصارت الذكرى أهون على عقلي
ولاطمئننتُ بأنكِ رحلتِ لربِّ أكرم مني ويحبُّك أكثر بكثيرٍ مني.. لها
غيابك على قلبي وقلْتُ له بأنكِ هناك في سابعِ سماءٍ وفي فردوسٍ أط
من هذه الأرض الفانية تنتظرين قدومي وتعدّين منزلنا وتحذرين
الحواري بأن لا يقربن مني، لأنكِ ستكونين حوريتي في هذا الفردوس
العظيم حين لم تستطيعي أن تكوني أمّاً لطفلتِي وزوجةً هي أولى
زوجاتي في الدنيا وعينيها ثانيتهنَّ وشفتاها الزوجة الثالثة التي
أتزوجها غصباً عنكِ، ونهداها رابعُ زوجاتي وألذُّهنَّ جميعاً! وأنتِ
ستفعلين بيّ كل ما لم تقدرِي على فعله خجلاً وخوفاً من ربكِ الذي
أحسنَ خُلُقكِ.. لكنَّ الموتَ أهونُ من كلِّ خيالٍ يرسمُك أمامي في حض
رجلي آخر..

كان سهلاً عليك أن ترحلي، وكان صعباً عليّ الزواج من غيرك ربي
إلحاح أمي العظيم وشغفها لرؤية حفيدها الأول وولعها بجمال ابنا
صديقتها التي تقضي وقتها معها في الحديث عن نساء الحي وأكل
لحومهن دون شفقة تذكر وبتلذذ ممتع، مع كل كلمة ينطقنها فتقطع بـ
شفاهن لحوم تلك النساء.

أمي تلك المتعلمة التي تتباهى دائماً بشهادتها الجامعية أمام
صديقاتها والتي لم يكتب لفتيات جيلها الحصول عليها كما نالتها هم
بامتياز وتفوق على كل قريناتها، نست ما تعلمته في تخصص شهادة
الدينية بأن الدين لا يفرق بين كل البشر، فالأسود والأبيض في مق
واحد، لا يفضل أحدهما على الآخر إلا بتقوى القلوب والقرب من رب
العالمين.. نست كل هذا حينما توجهت إليها بخجل كبير وخوف عظيم مر
ردة فعلها تجاه طلبي الذي وقع كالفأس على رأسها فأرداها قتيلة الأما
بي!

- أمي، أريدُ التحدث معكِ بشأن موضوعٍ يخصني.

أجابت بنبرة خائفة لأنها تعرف أنني عندما أطلب الحديث معها فأر
هناك أمراً مهماً جداً..

- تعال وأجلس بجانبني.. نعم يا ولدي، قل لي ما هو موضوعك
الخاص!

وبعد أن صمتُ لعدة ثواني أحاولُ جمع عباراتي واختيار الجملة المناسبة لهذا حديث..

- أمي لطالما أردت أن تريني عريسًا مرتديًا ذاك «البشت» الأسود الطويل وتلك الغترة البيضاء...

وبفرحٍ قاطعت حديثي..

- نعم يا حبيبي، إنه يومٌ سعدي وفرحي حين أراك عريسًا تمشي بين الورد ويداك تعانقُ يديَّ زوجتك، ويومُ المنى هو يوم ولادة طفلك الأول حين أحمله بين يديَّ وأرى وجهك الصغير في ملامحه مرةً أخرى...
بنشوةٍ أكملتُ حديثي...

- إذا نحن متفقان على موضوعٍ زواجي؟

- نعم يا بُني بالتأكيد سأكون فرحةً بهذه الرغبة، فأنت الآن في سز التاسعة والعشرين وكلُّ أبناء عمومتك تزوجوا وسبقوك رغم أنهم أصد سناً منك..

- إذا لنتحدث الآن عن الزوجة، يا أمي أنا...

تقاطعتُني سريعاً وتقول:

- زوجتك عندي لا تقلق من هذه الناحية... ابنة صديقتي «أ. راشد» فيها من الجمال ما يسرُّ عينيك، شعرها أسودٌ طويلٌ كشعر الفرس وعيناها جميلتان كفتيات البدو...

- ولكن يا أمي ما أريده...

بضحكةٍ حماسيةٍ تقاطعني مجدداً..

- أعلمُ أعلمُ ما تريدهُ، اسمعني يا ابني فأنا أعرفُ كيف يفكر الرجال.. إن كنت تريدُ جسداً جميلاً، فهي ذاتُ جسدٍ ممتلئٍ وجذابٍ يسعدك، كالفرسٍ مثلما قلتُ لك سابقاً...

- لا، لم أكن أقصدُ ذلك يا أمي، فأنا أريدُ الزواجَ بفتاةٍ أملكُ وإياها العديد من الخصالِ المشتركةِ وأحبُّ فيها أخلاقها قبل جسدِها، فالجسدُ يا أمي سيترهلُ يوماً، ما ولكن خُلُقُها هو من سيبقى طوال العمر..
تجيبُ أمي على حديثي وهي تحاولُ بشتى الطرقِ أن تجعله أرضى باختيارها لي..

- أووه يا ولدي، هي على خلقٍ عظيمٍ ودائماً ترافقُ أمها في كل زيارتها فتجذبُ أنظار جميع النساءِ وأظنُّ أن العديد من نساءِ الحرم يردن خطبتها لأبنائهن.. وبالمناسبة قد أكملت دراستها الجامعية قبل سنة وتنتظرُ الآن قرارَ توظيفها كمعلمةٍ في إحدى المدارس الابتدائية..
- أمي أرجوكِ افهميني...

- أنت الذي يجب أن تفهمني، فأنا أعرفُ أكثر منك في أمور النساءِ فقط قل أنك موافق مبدئياً عليها، وأعدك أنك ستقبلُ رأسي شاكرًا حين تراها في ليلةِ النظرةِ الشرعية..

ينفذُ صبري واحتمالي على حديثِ أمي التي تريدُ هذه الفتاة زوجاً لي بإصرارٍ يملُّ من كان في قلبه عشقاً لفتاةٍ أخرى..

- أُمي، أَحِبُّ فتاةً أخرى.. وأريدُ الزواجَ بها..
تندهشُ أُمي من كلامي وتبلغُ ريقها بغصاصةٍ ثم تقولُ لي:
- تُحِبُّ فتاةً أخرى؟!.. من هي؟!.. ومنذُ متى وأنت تُحِبُّها؟!
- نعم كما قلتُ لكِ يا أُمي العزيزة، أُحِبُّ فتاةً أخرى وحبِّي لها كبيرٌ جداً، وقد التقيتُ بها قبل سنتين حين انتقلنا من مدينة الخبر إل الرياض..

- قل لي من تكون؟
- إحدى بنات عمي....
- بناتُ عمك؟!
وبعد تفكيرٍ عميقٍ وسريعٍ وعينيها تُحدقُ في السقف...
- ابنةُ عمك خالد؟ مُنى؟ ولكن هي تصغرُك بسبعةٍ سنين!
- لا ليس هي يا أُمي..
- إذا ابنةُ عمك عبد العزيز.. ليلي؟ فلم يتبق من بناتِ أعمامك العازبات إلا ليلي ومنى!

- وأيضاً ليست هي من أُحِبُّ... ما بالكِ يا أُمي نسيتِ إحداهن!
تحتارُ أُمي بالتخمين وفجأةً تصرخُ وتتحدثُ بسرعةٍ كبيرةٍ لا أستطعُ من خلالها أن أفهم ما تقولُ:

- حنين!!!!!! هل فقدت عقلك؟ هل جُننت؟ تريدُ أن تتزوج هذه المريضة، تريدُ أن تقهرَ قلبي حين أرى أطفالك مثلها، لطالما استغربتُ



الرجاء شراء الكتاب من المكتبات
دعها للكاتب ولكي لا تضيع مجهوداته سدي!

مع تحيات فريق صفحة كتب
www.facebook.com/the.Boooks

من سؤالك عنها ولكن لم يخطرُ ببالي أنك قد تُجنُّ وتُحبُّها!!
وتفشلُ كل محاولاتِي في التخفيفِ من روعِها ويحمي جمرُ الغضبِ
في لسانِ أُمي..

- أنصت إلي جيداً، والله ثم والله يا هتان لن أسمح لك بالزواج من
هذه المريضة وأنا على قيد الحياة، إن أردتني أن أموت قهراً فإذهب
وتزوجها واخرج عن أمري، لن أسمح لك أبداً أن تعيش في بيتٍ
يُسمعُ فيه إلا صوتك، ولن أسمح لك بأن تُعذبَ أبناءك حين يولدون بلا
صوتٍ يسمعُ، ولن أرضى عليك حتى في موتي إن تزوجتها وساقوا
لربي في يومِ الحشرِ أنك خرجت عن مشورتِي وعصيتني وأني لستُ
براضيةً عنك.. لعن الله حُبكَ هذا، تُحبُّ..... بكماء!

على الطاولة أجلسُ وحدي، صفحاتٌ قليلةٌ بجانبِي أراها تغيَّرُ هـ
شكلِ طاولتي، قلمٌ وممحاةٌ وورق، أحكي بهم تفاصيل حزني الذي بات
صديقي الوحيد. قلبي لا يملُ من تحريضي على الكتابة، ينفثُ الحبر
دون هواده، وورقي يغويني على إسقاطِ ثقلِ الحزنِ الأسودِ علمِ
مساحاته البيضاء، وأما ممحاتي فلا أجدُ لها فائدةً تذكرُ سوى أنها
تذكرُني بأن الأخطاءَ واردةٌ في كلِّ الأحيان، كخطأٍ تعلقي بكِ إلى الآن
وإلى غدٍ، وإلى أن أقفَ بين يدي ربي وأتضرَّعُ له بأن يجزييني على هذا
الحزنِ الذي أهلكني في حياتي وأن يجعلك خيرَ جزاءٍ لصبري علمِ

حُزْنِي...

أَحْنُ إِلَيْكَ كَثِيرًا يَا حَنِينِي، أَحْنُ لِكُلِّ تَفَاصِيلِكَ الصَّغِيرَةِ غِي
المَسْمُوعَةِ وَلِكُلِّ الْكَلِمَاتِ الَّتِي كُنْتُ تَجَاهِدِينَ نَفْسَكَ عَلَى نُطْقِهَا لِتَسْعِدَ
قَلْبِي بِسَمَاعِهَا حِينَمَا صِرْتُ أَنَا صَوْتُكَ.. وَأَفْتَقْدُ إِشَارَاتِكَ لِقَلْبِكَ حِ
أَقُولُ لَكَ أُحِبُّكَ فَلَا تَجْدِينَ طَرِيقَةً لِتَقُولِي «وَأَنَا أَيْضًا يَا حَبِيبِي» إ
بَوْضَعِ إَصْبَعُكَ بَيْنَ نَهْدَيْكَ لِتَبِينِي لِي أَنَّنِي هُنَا فِي فُؤَادِكَ.

(2)

لَا زَالَتِ الذِّكْرَى تُحَلِّقُ كَنَسْرِ جَائِعٍ فِي رَأْسِي، يَبْحَثُ عَنْ فَرَسٍ
يَشْبَعُ بِهَا بَطْنُهُ الصَّغِيرِ، وَلَكِنَّهُ لَنْ يَرْضَى إِلَّا بِاصْطِيَارِ أَرْنَبٍ سَمِينٍ! وَتَبَّ
لِلنَّسْرِ الَّذِي يَحُومُ فِي رَأْسِي لَنْ يَرْضَى بِغَيْرِ دَمْعِي كَأَرْنَبٍ مَنَاسِبٍ لَوْجِ
غَدَائِهِ!

قَبْلَ نَحْوِ خَمْسِ سَنَوَاتٍ مِنَ الْآنَ، عَادَ أَبِي فَرَحًا لِلْمَنْزَلِ، يَحْمِلُ مَعَهُ
بَشْرَى وَأَخْبَارًا سَارَةً.
اجْتَمَعْنَا كُلُّنَا عَلَى طَاوِلَةِ الْغَدَاءِ نَنْتَظِرُ هَذِهِ الْبَشْرَى بِفَارِغِ الصَّبْرِ
بَيْنَمَا كَانَ أَبِي يَأْكُلُ مَبْتَسِمًا، فَيَزِيدُ الْفُضُولَ فِي عَقُولِنَا أَنَا وَإِخْوَتِهِ
لِمَعْرِفَةِ خَبَايَا هَذِهِ الْابْتِسَامَةِ الْجَمِيلَةِ.

انتهى أبي من القضاء على فخذ الدجاجة التي قُتِلَتْ لنتلذذ بلحمه
ورفع رأسه كمنتصرٍ في الحرب وقال لنا:
لدي أخبارٌ سارة يا بُني ويا بناتي.. جاءتني ترقيةٌ جديدةٌ في العمل
ولكن لأحصل عليها يجبُ علينا الانتقال لمدينةٍ أخرى!
وبصوتٍ واحدٍ أجبنا:
الرياض!

وكانت ضحكته وابتسامته كفتلتين بإدخال السرور إلى قلوبنا للحد
الذي يجعلني أعدُّ حقائبي في نفس الساعة، فلطالما تمنينا أنا وأخته
الصغيرتين العودة للرياض بعدما انتقلنا منها من أجل ترقية أبي
الكثيرة والتي تجعله يتنقلُ بنا من مدينةٍ إلى مدينةٍ دون أن يبالي بذ
وبعلاقاتنا مع الأصدقاء التي سرعان ما يقتُلها الرحيل لبلدةٍ أخرى ليبدأ
معها مسلسلُ تكوين العلاقات والتعرفُ على أصدقاءٍ جدد. ولكن هذ
المرّة نحنُ عائدون للرياض بعد خمس سنين من الغياب عن سماء
الزرقاء وعن ضجيج السيارات وتكدُّسها في شوارعها الطويلة.. عائدون
لنعانق وشاح جدتي الكبيرة الذي تفوحُ منه رائحةُ البخور الأصيلة ونسم
من عليل الجنة الزكية ولننعم بأحاديثها الطاهرة الطيبة التي تكادُ تسمعُ
فيها اسم الله في كل جملةٍ وبعد كل عبارة.

ولم أكن أدري وأنا أعدُّ حقائبي بأنني راحلٌ لمصابٍ الحب، ولقم
جبالِ العشق، فالحبُّ يا حبيبتي مصيبةٌ جميلة تأتي من غير ميعادٍ ومر

دونِ استتدّانٍ، تقتحمُ أبوابَ القلبِ لتصيبهُ بتعويذةٍ رقيقةٍ تجعلُها
القلبَ ينبضُ لهذا الحبِّ كمسحورٍ يتلاعبُ به، والعشقُ يا عشيقَ
كالجبالِ العالية، يقرّبُنَا للنجومِ والغيومِ، يجعلُنَا نطيرُ في سماءِ الهذيانِ
كطيورٍ جميلةٍ الجناحينِ، ويسافرُ بنا نحو قمرِ الغرامِ وشمسِ الهيامِ.

ولم أكن أدري بأنني سأخلقُ بحُبِّك عالياً.. عالياً....

ثم سأسقط مغشياً على وجهي، ومغشياً على قلبي!

وعلى عتبةِ بابِ منزلِ جدتي الكبيرة، كان اللقاءُ الأولُ حاضراً بيننا
وكانت نظرةُ الإعجابِ الأولى واضحةً في أعيننا، وكان صدى نبضِ
العشقِ الأولى يسمعُ في أرجاءِ صدورنا. حينما طرقتِ بابَ المنزلةِ
واتجهتُ لأجيبَ طارقك، ففتحتُ البابَ لأجدكِ حاملةً باقةً من الوردِ وكأ
وردةً تحملُ ورداً، أو ملاكاً نزلَ من السماءِ وفي يديه ورود من الجنة.
ياه كيف لعتبةِ هذا الباب أن تدخلنا في حدودِ خُرافةٍ تدعى الحب من
أولِ نظرة! وأنا من كان يضحكُ كثيراً على صديقي خالد حينما أتته
ليحكى عن تلك الفتاة التي قابلها صدفةً في أحدِ المطاعمِ وراق لعيني
جمالَ عينيها فجاءني يحملُ فوق أكتافهِ جبلاً من الحزنِ بعدما
يستطع أن يقترب أكثر منها ويخبرها بأنه أحبها من أولِ نظرة! تلك
الخرافة أمنتُ بها حينما رأيتُ عينيكِ اللتين تُشبهان نجمتانِ معلقتانِ في
وشاحِ السماءِ أو كشمسٍ مُشرقةٍ في فضاءٍ أبيضٍ طاهر، وذاك الذي
الذي يخفي ما تبقى من وجهِ جنّتكِ فيزيدكِ طهارةً على طهارة. كُنْ

تقفين بخجلٍ كبيرٍ يبانُ في عينيكِ دون أن تقولِي أي كلمةٍ أو تسألِي عر
سكّان هذا المنزل.. وقعت صريع جمال عينيكِ وأربكني وقُوفكِ على
الباب.. فجاء صوتُ أُمي منادياً لي من الخلف..

- هتان.. من لدى الباب؟

بارتباكٍ أجبتُها:

- لا أعلم ولكن هناك امرأةٌ تقفُ عند الباب.. تعالي وتحدّثي معها.
فاقتربت أُمي من الباب لترى تلك الزائرة حينما ابتعدتُ وهممتُ
بالدخول إلى المنزل.... وبعد لحظاتٍ قليلةٍ دخلت أُمي وقالت لي:

- هتان، اذهب واجلس في الطابق العلوي فإن لدينا ضيفَةً عزيزة.
حبستُ فضولي في داخلي واتجهتُ للطابق الأعلى وأنا أحاو
استراق السمعِ لأعرف من تكون صاحبةُ العينين الجميلتين ولكن صوت
التلفاز كان كفيلاً بتشتيتِ سمعي، حتى رأيتُ أختي جُمانَةَ ذاهِ
لغُرفتها التي تتشاركها مع عمّتي بعدما أتينا فجأةً للرياض واضطررنا
للمكوّث في بيتِ جدّتي، فأوقفْتُها وسألْتُها عن تلك التي راق لقلبي جما
عينها...

- جُمانَة، من لدينا؟

- هذه حنين...

- حنين؟! ومن تكون هي؟

- أَلَمْ تعرفها يا مغفل؟ إنها ابنةُ عمي.. البكماء! هل نسيتها؟

توجهت جُمانة لغرفتها وتركتني أُصارُغُ أفكاري وذكرياتي التي
جمعتني بك في طفولتنا البريئة، وبدأتُ أذكرُ كيف كُنتِ تجلسين حزي
بجانبِ أُمكِ في الوقتِ الذي نلعبُ فيه جميعُنا في فناءِ منزلِ جدتي، كُ
تُحزنين من عدمِ قدرتكِ على التحدثِ معنا ومن مضايقاتِ أبناءِ عمي
عندما يحاولون جعلكِ تردين الكلماتِ خلفهم ويظنون أنهم هم من
سيجعلونكِ تتحدثين، وكيف كُنتِ تبتسمين وأنتِ تسمعين غناءَ الفتيةِ
الصغيراتِ دون أن تستطيعي مشاركتهن الغناء، ولا زلتُ أذكرُ أيضاً
دميتكِ الصغيرة التي تأخذينها معكِ لكل مكانٍ تذهبين إليه فوحدها هـ
من تستطيعُ سماعَ صوتكِ ومن تستطيعين أنتِ التحدثُ معها دور
الحاجةِ لصوتِ مسموعٍ! وأذكرُ كيف جئتِ راكضةً نحونا، وأنتِ تحاولين
أن تخبرينا عن جُمانة حينما كانت تتألمُ بعد وقوعها من على الدراجة،
واكتفيتِ بجذبي معكِ لأرى جُمانة مستلقيةً في الفناء، ياه يا حنير
جمعتنا ذكرياتٌ كثيرةٌ في الصغر، ولكني لم أستطع التعرفَ عليكِ حينم
كبرنا وتغيرت مع نضوجنا ملامحنا..

ورُحْتُ أَسْأَلُ أيضاً، هل ذكرتني؟ أم أنني تغيرتُ كثيراً ولا
تعرفيني؟ فشعري لم يعد طويلاً وناعماً كما كان في الصغر، جعدت
سنينُ المراهقةِ وبعثرتهُ طوابيرُ العملِ، ووجهي اسمرَّ وانطفأ نوره بعد
كان ينيرُ بالبراءةِ وتتزاحمُ فيه خدودي، وتلك الشامةُ التي تميزُ رقبتهم
عن كلِ الرقابِ اختفت وراء شُعيراتِ ذقني، يا ترى عرفتني من أكون؟ أـ

أَنْكِ نَسِيتِنِي كَمَا نَسَيْتُكِ أَنَا؟

أَخَذَنِي التَّفْكِيرُ لَذَكْرِيَاتٍ عَمِيقَةٍ جَمَعْتَنَا، وَلَمْ أَكُنْ أَدْرِي أَنَّ هُنَاكَ
ذَكْرِيَاتٍ جَدِيدَةً سَتَجْمَعُنَا مَجْدَدًا ثُمَّ سَتَقْسِمُنَا لِنَصْفَيْنِ حَزِينِينَ!

قَطَعَ حَبْلُ ذَكْرِيَاتِي صَوْتُ جَدَّتِي الَّتِي كَانَتْ تَوَدُّعُكَ، فَهَمَمْتُ بِالنِّزْوَا
بَعْدَمَا سَمِعْتُ صَوْتَ الْبَابِ يَغْلُقُ.. وَجَدْتُ جَدَّتِي لَا تَزَالُ تَدْعِي لَكَ بِالْخَبَرِ
وَبِالنَّصِيبِ الَّذِي بَاتَ يَزْعَجُهَا تَأْخِرُهُ عَلَيْكَ وَأَنْتِ عَلَى مَشَارِفِ الْعِ
الْسادسُ والعشرونُ من ولادتكِ..

جَلَسْتُ بِجَانِبِهَا وَقَطَعْتُ دَعَائَهَا بِلُطْفٍ.

- جَدَّتِي، أُعْطِينَا الْقَلِيلَ مِنْ هَذِهِ الدَّعَوَاتِ الطَّيِّبَةِ..

ابْتَسَمْتَ وَالتَفَتْتَ إِلَيَّ..

- يَا هَتَانِ دَعْنِي أَدْعُو لِهَذِهِ الْمَسْكِينَةِ الَّتِي يَنْفَطِرُ قَلْبِي كُلَّمَا رَأَيْتُهَا.

- سَلَامَةٌ قَلْبِكَ يَا أُمِّي الْكَبِيرَةُ مِنْ كُلِّ شَرٍّ.. لَكِنْ مِنْ هَذِهِ الْمَسْكِينِ

الَّتِي تَدْعِي لَهَا بِالْخَيْرِ يَا جَدُّهُ؟

- إِنَّهَا حَنِينُ ابْنَةٍ عَمِكَ، لِلتَّو كَانَتْ هُنَا وَقَدْ جَاءَتْ لِنَتَّحِمَ لَكُمْ

بِالسَّلَامَةِ بَعْدَ عَوْدَتِكُمْ لِلرِّيَاضِ..

- إِذَا لِمَاذَا يَنْفَطِرُ قَلْبُكَ عَلَيْهَا؟

وَبَعْدَ زَفِيرٍ خَرَجَ مِنْ صَدْرِ جَدَّتِي وَهُوَ يَحْمِلُ زَخَاتٍ مِنَ الْهَمِّ..

- هَلْ تَصَدِّقُ يَا هَتَانُ أَنَّ أَجْمَلَ بَنَاتِ أَبْنَائِي لَمْ تَتَزَوَّجْ بَعْدَ؟

وَالصَّغِيرَاتُ مِنْهُنَّ تَزَوَّجْنَ وَأَنْجَبْنَ، وَلَكِنْ هَذِهِ الْمَسْكِينَةُ لَا زَالَتْ تَنْتَظِرُ

نصيبها الذي تأخر بسبب قدر الله الذي جعلها بكما..

بعدما رأيتُ الحزن بدأ يظهرُ في نبرةِ كلامِ جدتي حاولتُ تغيير
مجرى الحديثِ وقلتُ لها بمكرٍ..

- لا تبالغِ يا جده، لا أظنُّ أنها أجملُ منك..

أجابت وهي تبتسمُ..

- والله يا هتان إن فيها ما يجعلُها أجملُ من جدتكِ ومن جميعِ نساءِ
الحي، تخيل، ذات يومٍ كانت تجلسُ عندي في الوقتِ الذي زارتني فيه
إحدى الصديقات، ولأن حنين تَجَلُّ من نظراتِ النساءِ لها تركت المكانَ
وما إن ذهبت حتى سألتني صديقتي عنها وقالت لي إنها أُعجبتَ
بجمالها وأنها تبحثُ عن زوجةٍ لابنها، ولكن ما إن قلتُ لها أنها بكما وه
تستطيعُ النطق حتى تناستَ أنها كانت تتحدثُ في موضوعِ الزواجِ
وبدأت تتطرقُ لأحاديثٍ أخرى، يا حسرتي على ابنتي، عيبُها هذا يلغى
كل ما فيها من جمالٍ وخلقٍ في أعين الناسِ...

أنهيتُ حديثي مع جدتي بدعائنا سوياً لك بالخير يا حنيني قبل أن
أخرج لصديقي خالد الذي كان ينتظرُنِي في الخارجِ...

خالد ذاك الصديقُ الذي عشتُ معه مراحل الطفولةِ في المدرسة
والذي لم ينسني يوماً رغم بُعدي عنه لسنواتٍ طويلة، اختلفُ معه كثيراً
فهو يمتلكُ جرأةً لم أر مثلاً من قبل، لا يَجاُمِلُ أحداً ويدَّعي أنه صاد
مع الجميعِ ولذلك لا يحبُّ المجاملة، ويمتلكُ أفكاراً منحرفةً عندما يتعا

الأمرُ بالفتيات.. فهاتفهُ المحمول يكادُ يغمى عليه من كثرة أرقامِ النساء اللواتي يتحدثُ معهن بلا أدبٍ أو حياءٍ، يسجلُ أرقامهن تحت اسم واحد! فكلهن يتشاركن اسم «الحب» ولكن يختلفن بالرقم الذي يلي «الحب»! سألتُهُ مرةً: ألا تنسى أسمائهن؟ فأجاب ساخر: أنا لا أنسى نسائي! فالحبُ رقمٌ واحد تدعى عهود، وأروى هي رقمٌ اثنان وهكذا إلـم أن أصل إلى الرقم أربعة! وإن سألتُهُ لمَّ أربعةً بالتحديد؟ أجاب: لأن الشرع حل لي أربعة نساء!

والمعضلة أنه لا يتمسكُ بهذه الأربعة فقط، بل أنه يبدلهن متى انتهت رغبته وشهوته بهن! وكأنه يُطلقُ إحداهن ويبدلها بأخرى جديدة هذا غير الفتيات اللواتي يقابلهن في سفره وتنتهي متعته معهن بالجلوس على مقعد الطائرة المتجهة نحو الوطن!

لا أعلمُ لما أحبه، ولكني لم أجد صديقاً آخر أتحدثُ معه بشفافيةٍ غيره.. خرجتُ معه وقصدنا أحد المقاهي المنتشرة في أرجاء الرياض وهناك تحدثتُ معه عنكِ يا حبيبتي، فمَنْذُ أن رأيْتُكِ لم أستطع أن أخرج من عقلي..

بدأ خالدُ الحديث باستعراض ذكرياته مع النواعم كما يفعلُ ويد أن يتحدث عنهن دائماً، فألقيتُ عليه بسؤالٍ أزعجه وأقلقه..
- حسناً يا صديقي، تقولُ أنك تُحبُ الفتيات بشتى هيئاتهن وعيوبهن، ولكن قل لي يا خالد ماذا لو أُعجبتَ بفتاةٍ بكماء!

- بكماء!

- نعم بكماءٌ جميلةٌ وفيها كلُّ ما تتمنى تقبيله!

- أممم، لا أظنُّ أنني قد أعجب بفتاةٍ مثلها!

- لنفترض ذلك يا صديقي..

وفي محاولةٍ للهروبٍ من الإجابة..

- لا أحبُّ الفرضيات يا هتان، أنا رجلٌ واقعي.

- والواقعُ يقولُ أن هناك الكثير من الفتيات اللواتي لا يستطعن

التحدث يا صديقي، ماذا لو التقيت إحداهن!

- حتى لو التقيتُ بفتاةٍ بكماءٍ لن أُحبها لأنني لا أريدُ أن أظلم نفسي

معه، عقدتُ حاجبيّ مستنكرًا لما قاله خالد ورددتُ عليه..

- لا تريدُ أن تظلم نفسك معها؟! ولما تظلم نفسك حين تحبُّ فتاة

بكماء! قد تكون يا صديقي العزيز أظهر وأنقى من تلك الأجساد الناعمة

التي تتغنى بها في كل ليلةٍ وفي كل جلسةٍ، وتكون الشهوةُ هي الدافع

الوحيد لك دون أن يربطك معها أي حبلٍ من حبالِ العشق أو حتى ميثاق

غليظ! أليس كلامي صحيحًا؟

صمتَ خالد وسكتُ معه أنا وفي داخلي دماءٌ تهتفُ بالنصر.

فمنذُ أن رأيتُك يا حنيني وأنتِ قضيتي وحدي، أدافعُ عنك بشراسةٍ

وفي دفاعي عنك أنصرُ أنفارًا على شاكلتك.

دافعي لم يكن عطفًا عليك وعلى حالك، ولم تكن صلةُ القرابة تلك

دافعاً للوقوف في صفك، بل إنها القناعة التامة في صدري بأن ليس
هناك إنسان ناقص، وليس هناك بشرٌ بقدراتٍ محدودة، فنحن من نصن
أنفسنا بالشكل الذي نريده، وربُّ بشرٍ لا يقوى على النطق وفي لسان
دررٍ وحكمٍ.

* * *

(3)

مرت أيام.. أيامٌ دونك

أنحتُ فيها صخر الحبِ دونك

أطلقُ آمنياتِ اللقاء وحدي دون أمينك

أسهرُ ليلاً مع الدمع.. دونك

أقضي نهارها مع اليأس.. دونك

حتى طغت نيرانُ الذكرى..

حتى مات القلبُ.. دونك

ليلٌ ذو سحابٍ اسود، وسماؤٌ ترعدُ، ومطرٌ يهطلُ، وروحٌ مبتلةٌ من مي
الحنين، ومن أمطارِ الحزنِ العظيم.

هكذا ليلي دونك، أسودٌ في كل الأزقة.. كل شيءٍ ممتزجٌ بالسواد
كوبُ القهوة الذي على يميني، والقلمُ الأسود الذي أكتبُ به أنيني.

بحثتُ عن النسيان، في كلِ الطرقات، وفي كلِ الممرات.. طرقتُ بابَ
وأهديتهُ كلِ ذكرياتي وصور عينيكَ، وارتجيتهُ كثيرًا ودعوتهُ لزيارةِ عقلي
ودها ليزِ قلبي. ثم دعوتُ الربَّ أن يحييه في قلبي، أن ينزله على صدري
كوحىٍ يلقِّنني آياتٍ وتعويذاتٍ تطردُك من رأسي، وتهدمُ بيتكِ العالي فـ
فردوسِ قلبي، ولا هو الربُّ الذي استجاب دعائي، ولا هو النسيانُ الذي
قبل دعوتي!

حاولتُ أن أنساكَ، وأن أطرد كل ذكراك.. وعلى بُعدِ ثوانٍ قليلةٍ مـ
النسيان، أشعرُ بأنني اشتقتُ إليك!

مرت الأيامُ منذُ أولِ سقوطٍ في كمين عينيكَ، ومنذُ أولِ مرافعةٍ -
قضيةٍ شفتيكِ، مرّت هكذا سريعًا دون أن أشعر بقيمةٍ لها، ودون أن
أقطف أي ثمرةٍ منها، وكأن أيامي تنتظرُك لتكوني لها سببًا للسعادة
والحياة والفرح.

هاتفي يرنُ بحماسٍ ويومضُ باسم أمي على شاشتهِ وأنا غارقُ
أوراقِ «البلوت» التي بيدي وشاردِ الذهنِ أفكرُ في طريقةٍ أكسبُ بِـ
هذهِ الجولة، وأحطم رأس ملك اللعبةِ خالد، إلى أن شئت أفكارِ صوت
صديقي الذي ينبهني بأن هاتفي يرنُ..

- أهلاً أُمَاه..

- أهلا هتان، أين أنت؟

- مع أصدقائي.. هل تريدون شيئاً؟

- بنتُ عمكِ هنا وتريدُ أحداً يقوم بإيصالها للبيتِ وعمكِ منشغلٌ بعملٍ آخر.

وبقلبٍ يرددُ بـ «يا رب» سألت..

- من؟ حنين؟

- نعم..

- بضعةُ دقائقٍ وسأكون لديكم...

قذفتُ أوراقَ اللعب وهممتُ بالخروج، وخالدٌ يضحك ويقول «هكذا يهربُ الجبناء».. وليتهُ كان يعلمُ أنني كنتُ أهربُ منه لأربحَ جولةً أخرى جولةً تحتاجُ لمكرٍ من نوعٍ آخر أمامَ رقةٍ رمشيكِ.

وفي الطريقِ كنتُ مُنشغلاً بتهديبِ ذقني وتعديلِ هندامي وإبرِ شيءٍ من ملامحِ رجولتي كتلكَ العضلتين الكبيرتين في ذراعيَّ، فاحتاجُ لأن أكون في حلةٍ جميلة لأجذبَ عينيكِ وربما قلبك، وأنتِ لـ تكوني بحاجةٍ لإبرازِ أنوثتكِ، فعينيكِ متكفلتين بهذا الأمرِ والقليلُ هـ زخاتِ عطركِ كانت كفيلاً بإغوائي.

ولا أذكرُكم من إشارةٍ مرورٍ حمراءٍ قد تجاوزتُ وأنا متلهفٌ القلبِ لرؤيتك مجدداً.

هكذا هي الفرصة لا تتحملُ إشاراتِ مرورٍ تأخرُها فتذهب دون أٍ؛ فرصةٍ أخرى تتكرر.

وصلتُ لعتبةِ بابِ منزلِ جدتي وكأنَّ العتبةَ تبتسمُ لي وتقول «أنا عتـ

باب الحب وأنا عتبة سعدك».

اتصلت بأمي وأخبرتها بأنني في الخارج أنتظرُك. وانتظرتُ خروج
وكأنني أنتظرُ خروج عروستي من حفل زفافنا لأختلي بشفيتها
وأستنشق رائحة عطر رقبتيها.

وبعد خمس دقائق مرت ببطءٍ شديدٍ أتعبت قلبي الشغوف لرؤيتك.
فُتح بابُ المنزل وعيناي تحدقان نحوه وتتأمل أطراف عباةك لعلني أرى
شيئاً من بياض ساقيك أو تهب ريحٌ تجعل عباةك تلتصق بخصرك ف
شيئاً من انحنائه المثير.

ظهرت كقمرٍ سقط من السماء أو كملكٍ يشع نوراً، ظهرت وبدأ القا
يرتك ويتعالى صوت نبضه. يا ااه ما أجملك وما أجمل هذا اللثام الذي
يظهر إلا عينيك ورمشيها الناعمين. أحببت لثامك كثيراً رغم أنه يحرم
من التمتع بالنظر لوجه ملائكي بديع الخلق.

أزحت ناظري عنك، وأذناي تنتظرُ صوت فتح الباب.. صوت أول
خطواتك في أرضي، وأول قرب بيننا دون حاجزٍ أو محرمٍ!
فُتح الباب، وركبت أميرة الأشعار، ودماء قلبي بدأت بالغليان.

ما أجملها من لحظةٍ حين تقودُ سيارتك والقمرُ يُرافقك، تشعرُ بأذ
تطير فوق الغيوم، وتتباهى بقمرِكَ أمام النجوم. تشعرُ أنك في جولة
استثنائية، لا تريدُها أن تنتهي، لا تريدُ أن تصل لوجهتك، وتتمنى أن
تتوه بين الطرقات وأن تطول المسافات، فقط لكي تكسب مزيداً من



الرجاء شراء الكتاب من المكتبات
دعها للكاتب ولكي لا تضيع مجهوداته سدي!

مع تحيات فريق صفحة كتب
www.facebook.com/the.Boooks

اللحظات.. مزيداً من نبضاتِ الحبِ الجميل

انطلقنا وانطلقتُ في داخلي آمنياتٌ كثيرة، وأحلامٌ كبيرة كُنتِ أُنْ
سيدتها وأميرتها. وكم كُنتُ ممتناً لتلك المرأة الصغيرة المعلقة أمامي،
فقبل هذه اللحظة لم أكن أعرفُ فائدةً تذكرُ من صنْعِها، حتى صارت
الأداة التي أستطيعُ من خلالها رؤية عينيكِ والجزء الصغير الظاهر من
وجنتيكِ.

لم يكنْ هناكُ كلامٌ يحكى بيننا، فكما يقولونُ يا جميلتي «الصمد
في حرمِ الجمال.. جمال!». وما أجمل ذلك المطرب الذي كان صوتهُ
الشامخ يكسرُ هدوء جولتنا، وما أجمل كلمات ذلك الشاعر الذي كان
يكتبُ قصيدتهُ للحظةٍ كهذه..

«أحبيني بلا عُقدٍ

وضيعي في خُطوطِ يدي

أحبيني لأسبوعٍ.. لأيامٍ.. لساعاتٍ

فلست أنا الذي يهتم بالأبد..».

(نزار قباني)

أحبيني.. فأنتِ حالةُ إدمانٍ لا تتكرر.. ونهرُ هذيانٍ، وقطعُ مر
السُّكر.

أحبيني فأنتِ واحدتي ومُهْلِكْتِي.. وبين عينيكِ، أريدُ حفر قبري.

أحبيني.. فأنت نبض قلب لا يهدأ.. وليلة جنون وأجمل مرفأ.
أحبيني.. فأنت، لا أعرف حقاً من أنت! سوى أنك الوحيدة التي
تجيد القفز بين شرايين قلبي.

أحبيني.. لا تترددي ولا تتأخري فأنا مشغول بنسج قصيدتي.
وضعتُ فيها عينيك، ورسمتُ فوقها شفتيك، وأخافُ أن تتأخري.. فأحبهُ
أكثر من خديك!

وما إن انتهت حالة هذياني اللذيذة، حتى وجدتُ أننا قد وصلنا.
وصلنا وبابُ منزلٍ مشتاقٍ لعودتك والنوافذُ بنظرةٍ مشتاقةٍ تنظرُ إليك،
شيءٌ في ذلك المنزل يترقبُ عودتك وكأنك الكهرباء التي تضيئُ أرجاءه
لحظةً فرحٍ تعيشُها أرضُ ذلك المنزل، ولحظةً تعاسةٍ يعيشُها قلبي.. كيه
أدعُك تذهبين وأنا لم أكتف، وما زال قلبي يريدُ الكثير والكثير منك..

وبابتسامةٍ ناعمةٍ نزلتِ، ابتسامةٌ لم أرها بشكلها المعروف، بل رأيْتُها
تخرجُ من عينيك، ولم تستطيعي أن تقولي وداعاً، ولكنها عينيك كانت
تلوحُ بـ «إلى لقاءٍ آخر!».

عدتُ إلى منزلي وسريعاً صعدتُ إلى غرفتي وأنا مبتسماً ومزدهمً
قلبي بك.. وفي تلك الليلة لم أحتج لمداعبة النوم لكي يأتي، بل جاء
سريعاً كما يأتي بعد نشوة الجسد..

نمتُ مبتسماً.. وصحوْتُ وأنا كذلك.. وكانت عيناك هي آخر ما فكرتُ
به.. وأول ما تذكرته حين استيقظت.

أصبحت رؤية عينيك تنزغ ابتسامة جميلة على ثغري.

* * *

حين نحب تتعلق سعادتنا على أكتاف من نحبهم، فإن أداروا لذ
ظهورهم، أدارت لنا السعادة ظهرها وإن اقتربوا منا زادت نبضات
السعادة في قلوبنا.

حين نحب يصبح من نحبهم.. فرحنا وابتسامتنا وبهجتنا والليل
الطويل الذي نسهره بملء إرادتنا، وشمس الصباح البشوشة، ونكهة
القهوة الحلوة.. وأحياناً المرة!

يصبحون كل شيء جميل في حياتنا، وما سواهم لا يذكر حتى وإن
أعطانا ما لم يقدرُوا هم عليه.

هكذا أصبحت أنتِ، فرحي وسعادتي وبهجتي وكل الأمور الجميلة
في حياتي. أصبحت ابتسامتي الحلوة، وفرحتي الكبيرة، وكل ما يتعلق
بك يسعدني مهما كبر أو صغر. قهوتي لم تعد بحاجة لقطع من السكر
فقط القليل من الغرق في ذكراك كان كافياً ليوهم عقلي بأن كل شيء ذر
مذاقٍ سُكَّرِي.

منذ تلك الليلة وتلك الجولة وأنا أبحث عن طريقة أصل بها إليك، أريد
أن أخبرك بأنني تجاوزت مرحلة الإعجاب، وما أراه في نفسي لهم
علامات الهيام. أريد أن أخبرك بأنني أريدك وأنني أحب كثيراً عينيك وأ
عينيك - والله - رائعتان. أريد أن أكتب لك قصيدة وألقيها على مسمعك

حتى أرى سنك الضاحك الخجول، واستمتع برؤية لون الورد الأحمر على خديك.

ما أكثر ما أريده معك، ولكن كيف السبيل إليك؟

(4)

ها هي الليلة العاشرة من بعد ذلك اللقاء.. ليلة فجيعة كبرى، ليلاً دموعٍ عظمى، وآهاتٍ كثيرة، وأنين طويل، ونحابٍ ليس بقليل... الساعةُ تصيرُ إلى السابعة قبل البكاء، وأنا غارقٌ في كتابة رسال الماجستير. رقمٌ غريبٌ يتصلُ بي، لا أذكرُ أنني رأيته من قبل، بهدٍ رفعتُ هاتفِي وأجبتُ على تلك المكالمة المشؤومة...

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

- الأخ هتان؟

- نعم، من معي؟

- معك الدكتور سعود من مستشفى الملك فيصل التخصصي.

بعدما ارتعش جسدي خوفاً ألف مرة في ثانية واحدة فقط.. أجبت:

- خير إن شاء الله؟

- نريدك أن تحضر حالاً هنا..

- لماذا؟ من هو المصاب؟

- تعال الآن وستعرف كل شيء..

- انتظر.. انتظر.. لا تتركني حائرًا هكذا، قل لي من لديكم؟

- تعال الآن يا أخ هتان وستعرف كل شيء..

- أرجوك قل لي من المصاب، ألووو...

توت ... توت

المتصل أنهى المكالمة وأنا أحمل قلبي بين يديَّ.

«يا الله يا رحيم ألطف بنا، يا كريم يا عزيز ألطف بحالنا ولا تُرنا مكروهاً في أحدٍ من أحبّابنا..» هكذا بدأتُ أرددُ وأدعو الرب بأن لا يُحزن قلوبنا وكأنني كنتُ على درايةٍ بأنني سأواجهُ أصعب موقفٍ قد يمرُّ به الإنسان في حياته.

جذبتُ ثوبي سريعاً، ارتديتهُ وخرجتُ من غرفتي راكضاً.. يا الله نسيتُ مفاتيح سيارتي.. عدتُ وأخذتها سريعاً وفي طريقي لباب الخروج، كانتا، أمي وجدتي جالستين هناك قريباً من الباب، وشاهدتُ الخوف في عينيَّ وأنا أسابقُ نفسي للخروج، وكيف كانت ترتعشُ يداي.. مسكتُ مقبض الباب ودفعتُ به بعيداً ففي حالةٍ خوفٍ كهذه يجبُ أن تقف أماناً أية أبواب..

أركضُ للسيارة وأمي تركضُ خلفي وهي تنادي «هتان، هتان.. ما توقف أرجوك.. هتان لا تتعبني توقف».. وآه يا أمي ليت قدماي كانتا قادرتين على التوقف، كلُّ شيءٍ فيَّ لم أعد أستطيعُ التحكم به، والوحيد

الذي كان مستعداً للتوقف هو نبض قلبي..

كيف لا يتوقف نبضي وأنا أعلم ما سأواجه هناك، وأنا أعلم أنني
سأعود باكياً على رجل لا يعوض أبداً، وحزين القلب على أبي لا أستط
مهما كبرت أن أعيش دونه...

فوحده هو أبي من خطر في بالي، واهتزت كل أطرافي بمجرد
التفكير بأنه متعب أو مصاب.

ويا ليت حدسي كان كاذباً.. ليتهُ كان وساويس شيطانٍ لعين، أو
أضغاث أحلامٍ وبعد قليلٍ سافيق.

الطريق إلى المستشفى - في زحمة الرياض الشهيرة - أخذ مني ما
يقاربُ الخمسة والثلاثين دقيقة.. ومئة دعاءٍ للرب، وخمسين رجاءً للرب
وربما سبعين مكالمة لهاتف أبي الذي يزيدُ من قلقي في كل مرةٍ يجيبُ،
«عفوًا إن الهاتف المطلوب لا يمكن الاتصال به الآن»، والكثير الكثير من
اللعنات على هذا الهاتف الذي يأبى بأن يطمئن قلبي، وعلى كل سيارةٍ
أمامي تؤخرُ وصولي للمستشفى.

وصلتُ وركنتُ سيارتي أمام باب المستشفى دون أن أهتم لصراخ
حُراس المستشفى وهم يأمروني بإزاحتها. توجهتُ سريعاً لمكتب الاستقبال..
- السلام عليكم أخي.. أحدهم اتصل بي وأمرني بالحضور حالاً.

خيرٌ إن شاء الله، ماذا أردتم مني؟

- ما اسمك؟

- هتان محمد..

- لقب العائلة لو سمحت..

- الخالد..

بدأ الموظف بتقليب الأوراق الصفراء التي أمامه ثم قال...

- انتظر قليلاً في غرفة الانتظار.. سيحضر الطبيب ويحدثك.. فقد انتظر هناك.

جررتُ قدماي كجنديٍ جريح، وأسندتُ ظهري على كرسي الانتظار، وأنا شارد الذهن ومنتكش شعر رأسي من هول المصائب التي أتوق حدوثها مع قدوم الطبيب.

مع بطء قدوم الطبيب، أحسستُ أن الشيب بدأ يغزوني، فقدماي تهتز، وقلبي ينبض بسرعة كبيرة وكأنه مجهدٌ من البقاء حياً طوال تا السنين القليلة، وأشعرُ أن شعري بدأ يتساقط.. يتساقط بلونٍ أبيض وظهرتُ تجاعيدُ القلق على محياي حين جاء صوتُ الطبيب منادياً..

- هتان ... هتان.

قفزتُ مسرعاً إليه وأنا أردد..

- نعم، نعم أنا هنا.

صافحني وقال:

تعال معي إلى مكتبي، أريدُ أنا أخبرك بأمر..

تشبثتُ به وأنا أحاول معرفة هذا الأمر الهام الذي أكل الكثير من

أجزاء قلبي، ولكنه لا يتحدث ولا يقول شيئاً.. ولم يتحدث وهو الخبير فم هذه الأمور ويعلم جيداً ما يسببه المفجوعون من أخباره في أوراق المشفى من بكاءٍ وصراخ!

دخلتُ معه إلى مكتبه الكئيب، أغلق الباب وأمرني بالجلوس.. ثم قال...

- هتان.. سأخبرك بأمر، ولكن أريدك أن تكون قوياً.

- قل.. قل أرجوك لم أعد أحتمل أكثر..

- قبل ساعتين يا هتان، وقع حادثٌ دهسٍ في إحدى الطرق، وحيه أحضرت سيارة الإسعاف المصاب لدينا كان ينزف، وقد نزف الكثير من الدماء في الطريق إلى المشفى، وللأسف لم نستطع إنقاذه، فقلبه الهرم لم يتحمل هذا النزيف، وعندما تفحصنا جيوب ثوبه وجدنا بعض من البطاقات الرسمية التي تدل على اسمه.. محمد هتان الخالد...

يا الله، كيف يستطيعُ شخصٌ يداوي قلوب البشر أن يقتلها بهذه الطريقة الباردة.

أبي، والروح تصرخُ ألماً على فراقك، والجسدُ هزيلٌ من دو استقامتك..

أبي، يا رجلاً أنا نصفه الثاني، وهو كلُّ أرجائي..

أبي، يا من لا تقسو أبداً، كيف قسيت على قلبي، ورحلت بعيداً

عني..

أبي يا حبيبي، وقدوتي، وشمعتي وأجمل وأكمل وأطهر الرجال في حياتي.. من أين أتى بأبٍ ثانٍ، حتى أكبر بين يديه وأتعلّم من جميعا صنعه.

أبي، أرجوك عد.. عد ليومٍ واحد، لساعةٍ واحدة، لدقيقةٍ يتيمة.. أرجوك عد فعلى شفّتي قبلة تريدُ الهبوط على قدمك، وقبلة أخرى تريدُ معانقة رأسك..

يا أبي، مهما كبرتُ أنا، ومهما نضجتُ وتعلّمتُ وأحسنْتُ التصرف لن أستطيع من دونك التقدم، برحيلك وضعتني على خطٍ أعوج بعدما كان يستقيمُ بنصائحك.

يا أبي، أنتَ سماء، وغيومٌ والكثيرُ من الأصدقاء.. كيف أعيشُ إلا من دون سماءي؟ وكيف تمطر السماء من دون غيومك.. وما حاجتي للمطر من دون صديقٍ يحمي رأسي من قطراته؟!

يا أبي، الكتابةُ إليك.. أصعبُ بكثير مما كتبتُه لفاتنة قلبي! رحيلُ أبي كان رحيلًا مُرًا ومؤلمًا، فمن بعدهُ سيرفضُ رغباتي المراه خوفًا عليّ، ومن بعدهُ سيصرخُ في أذني حين أتخلفُ عن جماعة المسجد وصلة الرحم. من بعدك يا أبي سيحرصُ على أن نجتمع كل مساءً وإِ كان اجتماعنا على وجبةٍ عشاء.. ومن سيخجلُ كثيرًا حين يسمعُ أمي وهي تحكي لنا قصص زواجها وكيف أنها أحبّت زوجها كثيرًا من بعد

أول ليلة لقاء.

كيف أحكي يا أبي مشهد رؤية جسدك البارد مُمدداً في ثلاجة؟
والصرخاتُ في داخلي ساخنةً وجافة.. كيف أعود من دونك، من دور
جسدك وروحك.. وماذا أقول لأمي؟ زوجك مات؟! رأيتُ قبل قليلاً جسد
من دون تلك الروح التي قضيتَ سنينكِ تعتنين بها وتحبين قربها وبعده
وطيبتها وقسوتها؟ وماذا أقول لجدتي الكبيرة؟ ابنك الذي يقول لك دائماً
«جعل الله يومي قبل يومك يا ست الحبايب» حين تشكين من أمراض
الكبر قد استجاب الله دعاءهُ ورحل عنك وجعلك تبكين عليه بدلاً من أن
يبكي عليك؟ وماذا أقول لجُمانة؟ وليمامة؟ أبوكما الذي لا يرضى أن يرى
الحزن على محياكما قد رحل ورضي أن تحزنا الآن؟ وكيف أصبرُ
نفسي وأنا سأحملك بيديّ غداً وأضعُك في التراب.. أضعُ أحب الناس
لقلبي في التراب!

لم أستطع العودة للمنزل بعد أن ماتت كل مشاعري مع موت أبي
كان ذلك الليلُ حالك السواد، ليلٌ جاء مُتربصاً لقلبي، ليحزنهُ كثيراً وياً
كثيراً...

أخذتُ هاتفي بعد أن صار بكائي بدون دموع، بعد أن نضبت أنها
عيني فلم يتبقَّ منها شيئاً ليسقط.. بحثتُ في قائمة الأسماء على اسم
قريبٍ يستطيعُ احتوائي بحالة هذه، ولكن لم أجد غير صديقي خالد أها
لهذه المهمة الحزينة.. فكم من صديق كان أقرب لنا ويفهم قلوبنا أكثر من

شخصٍ تربطنا معه صلةٌ رحمٍ ودم!

خمس عشرة دقيقة كان كافيةً ليصل خالد سريعًا للمشفى رغم أنه لم يفهم من مكالمتي شيئًا غير أنني بالمشفى وأبكي!
دخل خالد للمشفى باحثًا عني، فوجدني جالسًا على الأرض، فلا كرسي يستطيع تحمل وزن صراخي ودمعي، أقبل علي وأخذني في حضنه وقال...

- ما بك.. ما بك يا هتان.. لما تبكي؟

ويا لصعوبة جواب هذا السؤال، ويا لتعاسة الجيب، ويا لخيبته الكبيرة.. ومع شهقاتي أجبته..

- أبي.. أه يا خالد، أبي مات.. رحل....

ولم يملك خالد إلا الصمت، فهو يعلم جيدًا أن لا شيء في تلك اللحظة سيخفف عني ويجفف دمعني..

ساعدني على النهوض، وجعلني أتكئ على كتفيه واتجهنا لخارج المشفى.. حاول خالد كثيرًا أن يخفف عني بقوله «يا هتان، يا صديقي إنه قدر الله، وهو مكتوبٌ علينا جميعًا، أباك ليس بحاجةٍ لدموعك الآن، ولا لهذا الآن.. هو بحاجةٍ لدعائك، فإن كنت تحبه حقًا إدع له، فهذا الشيء الوحيد الذي سينفعه»...

واستمر في الحديث والنصح حتى وصلنا إلى المنزل، وأنا خائف القلب مما قد يحصل في الداخل..

وقبل أن أودعه.. أمسك بيدي، وقال «يا هتان، أنت الآن رجل المنزل.. أنت الآن الأب الحنون على أفراد عائلته.. أمك وأخواتك وكل أفراد عائلتك سيكونون أقوياء إن كنت أن قويا أمامهم.. حاول أن تتحدث مع أمك أولاً وتخبرها عما جرى، وبمجرد معرفتها بالأمر سيعرفه الكل»...
وكان خالد صادقا كثيرا في هذا الجانب.. فبعدما دخلت للمنزل وجدت أمي تنتظر عودتي وهي تبكي في فناء المنزل، فخروجي بتلك الطريقة كان لا يبشر بخير أبدا.. استقبلتني بحزن كبير، وهي تسأل «أين أباك يا هتان، أخبرني أين هو، فقد حاولت الاتصال به كثيرا ولكن لا يجيب.. سألتك بالله يا ولدي، طمئن قلبي.. قل لي إنه بخير»...
لم أتمالك نفسي، فسقطت على قدميها وبصوت كسيف مزق قلبها.. «رحل أبي... رحل يا أمي...».

* * *

(5)

When I am alone with God, I see that God is really all I have. All that matters. All that will last. At these times I realize that the magnitude of what I have is incomprehensible. Usually I cry for the (sheer joy of it. Not tears of defeat, but rather tears of gratitude.)(2

لا شيء يبقى.. ولا شيء يرحل..
لا شيء من الأفراح يبقى، ولا شيء من الأحزان يرحل..

أشعرُ بأنني عصفور، ولكن من دون جناحين.. أشعرُ بأنني شجرةٌ
ولكن من دون أوراق.. أشعرُ بأنني لا زلتُ على قيد الحياة، ولكن رحيا
أبي جعل حياتي سوداء.. سوداء قاتلة..

أقضي يومي مُحاولاً تجنب رؤية أمي، ورؤية الحزنِ العقيم الساك
في عينيها.. أتجنبُ رؤيتها لكي لا تبكي حين ترى صورة أبي المرسومة
على وجهي، فأنا ذلك الاقتباسُ الصغيرُ من وسامته، وأنا من يمتلك نبر
صوتٍ قد تخيلُ للسامعِ بأن ذلك الصوت أتى من حنجرة أبي..

مسؤوليةٌ كبيرةٌ وقعت على عاتقي، حتى أصبحتُ أشعرُ بأنني لست
لنفسي.. ففي ليلةٍ وضحاها، أصبحتُ أباً بديلاً لطفلتين كنتُ سا
أخاهما الكبير فقط.. أما الآن فأنا من يجبُ عليه توفير طلباتهما
والسهر على راحتهما، وقضاء باقي العمر بجانبهما إلى أن يأتي يومٌ
مُحزنٌ ومُفرحٌ أسلّمهما فيه لأزواجهما..

تلك المسؤولية الكبيرة جعلتني أنسى ما كنتُ أبنيه لنفسي وما كنتُ
أطمحُ لتحقيقه..

يجبُ عليّ الآن ترك أوراقِ دراستي التي أعدتها في مجالِ التنم
الاجتماعية، أملأ في الحصول على درجة الماجستير التي كانت أقا
طموحاتي وأجمل أمنيّاتي أبي.. يجبُ عليّ الآن البحث عن عملٍ ناف
لأستطيع تنمية هذه الأسرة الحزينة، وتأمين مصدرٍ رزقٍ كريمٍ لها...
استودعت الله طموحي ثم جمعتُ أوراق بحوثي التي قضيتُ م

يقاربُ السنتين أعمل عليها، ووضعتها في خزانة صغيرة، وبدلتها بملف أخضر اللون، كان يلعبه كثيرًا صديقي خالد في كل مرة يرفض فيها ويعود خائبًا من دون فرصة للعمل.

فها أنا ذلك الطفل المدلل الذي يعيش في رغدٍ دون الحاجة لعم أطرق أبواب الوزارات والمؤسسات وأبتسم كثيرًا لهؤلاء المسؤولين : قبول الموظفين رغم جفاف أسلوبهم الحسن، ورغم نظراتهم التي تقول : «أنت لا شيء!».

أستيقظ متفانيًا في الصباح، وأعود خائبًا في المساء.. أعود مطأطئ الرأس، خالي اليدين..

عودتي بتلك الهيئة كانت تخبرُ عائلتي بأننا قد نمرُ بمرحلة يجد علينا فيها أن نقتصد كثيرًا، وأن نتكاتف إلى أن يأتي فرج الرزاق الكريم..

الأيام تجري، وفرصة العمل لا تأتي.. أصبحت أعيش في قلقٍ كبير وخوفٍ من المستقبل ومما قد يأتي به.. حتى وضعت أمي حدًا لهذا القلق، فبمكالمة لشقيقها الأكبر استطاعت أن تؤمن لي وظيفة مرموقة في إحدى الشركات الكبيرة التي كان يديرها خالي..

وكأنها بفعلها هذا تقول نحن مجتمعٌ لا يستطيع أن يعيش بدون وساطة ترفعنا من أسفل القائمة إلى أعلاها!

ورغم أنني كنت أرفض وبشدة هذا المبدأ الذي يشوه مجتمعتنا،

أنني كنتُ مُجبرًا على وضعِ كبريائي جانبًا من أجلِ هذه العائلة التي لا أدري إلى أي ستأخذها الأيام وقبولِ هذه الفرصة اللامتكررة..

وفي صباح اليوم التالي، تهنّمتُ وتعطّرتُ وأمسكتُ بملفهِ الأخضر، ثم هممتُ بالخروجِ مبكرًا علّ وعسى أن أنال إعجاب مدير الشركة الذي أدعوه بخالي وأضمن تلك الوظيفة.. وصلتُ للشركة واضطّرتُ أن أنتظر ما يقاربُ الساعة والنصف أمام بوابتها، لأزحماسي أنساني أن وقت العمل لا يبدأ إلا في الساعة التاسعة..

تمضي الدقائق سريعًا، ويأتي حارسُ الشركة الفقير ليفتح أبواب الرزق للعاملين.. أحملُ نفسي وأتجه للطابق رقم ثلاثة بعد العشرة حيث يقبعُ مكتبُ خالي، واستأذنتُ بالدخول ودخلتُ عليه.. ويا ليتني لم أَدْخُ لذلك الرجل اللئيم، فما وجدتُ منه إلا كلماتٍ مبطنة، كلماتٍ كان يقصد بها التقليل من قدر أبي الذي رفض أن يضع جهده معه لينشأ هذه الشركة معًا وفضل أن يعيش حُرًا وقريبًا من أبنائه ويكتفي بالعمل البسيط الذي يوفرُ لهم لقمة عيشٍ كريمة. لا أريدُ أن أذكر ما قاله لك، لا أغضب وأبلع غصة غضبي التي ابتلعْتُها ذاك اليوم من أجلِ عائلتي فقط. أنهى كلماتهِ اللئيمة ثم أمرني بأن أباشر بالعمل غدًا..

كان من المفترض أن أخرج سعيدًا، سعيدًا بتلك الوظيفة التي يحاط بها الآلاف من العاطلين في بلدي، ولكن حقد ذلك الرجل أخرجني كئيبيًا، فكيف أرضى أن أعمل تحت راية رجلٍ لا زال يُكنُّ الحقد لرجلٍ دُفن تحت

التراب..

وفي المنزلِ كانت أُمِّي تنتظرُ عودتي لترى ابتسامة السعادةِ عليّ
ثغري. أقبلت عليَّ وبادرتني الحديث:

- أعطني البشري يا ولدي.

وبصوتٍ مقهورٍ أجبتها:

- حصلتُ على الوظيفةِ يا أُمِّي.. غدًا يكون أول أيامِ عملي بإذن الله..
تغيّرت ملامحُ وجهها المنير ورددت خلفي..

- بإذن الله.. بإذن الله يا هتان.

وقبل أن أٌصعد لغرفتي، عادت إليَّ وأمسكت بيدي.. ثم قالت:

- يا حبيبي، أعلمُ أن لقاءك بخالك لم يجر على نحوٍ جيد، عيناك تقوا
هذا.. ولكن يا هتان، تعلم ما نمرُ به الآن، فاصطبر يا بُني من أجلي،
ومن أجلي جُمانة وِيَمامة..

قبَلْتُ رأسها وطمأنتُ قلبها بقولي:

- يا أم هتان، من أجلِ الجنةِ التي وضعها الله تحت قدميكِ أفع
المستحيل إن أردتِ.

فابتسمت جدتي، وصعدتُ أنا لغرفتي..

ألقيتُ جسدي على السرير، وجسدي وحده من كان على السرير، أما
روحي فكانت تحلّق في سماءِ الأسئلة، لما يحدثُ كل هذا لي؟ أي بلا
هذا الذي يجعلُني أخفضُ كبريائي لرجلٍ أحمق؟ وإلى أين سيأخذُني

المستقبل؟ أَبْقِي لَيَّامِي فرح؟ أم الحزن سيكون أقرب أصدقائي؟
وسأثمل بالقهر فيما تبقى من حياتي؟

يا رب لم أكن هذا ما أريدُه، ولم يكن هذا سقف كفايتي وطموحي. لا
أريدُ أن أكون إنساناً عادياً، يعملُ ويأكلُ ويصلي ثم ينام. أريدُ أن أضرب
بصمةً لي على جبين هذا الكوكب، أريدُ أن أكون نجمةً لا تموتُ ف
سماءِ هذا الكون. أريدُ أن أكون مختلفاً.. مختلفاً فقط.

وفي غمرة غرقي في بحر المستقبل، جاء رنة هاتفي حاملةً معها
تهنئة قصيرة على شكل رسالة قصيرة.

مددتُ يدي لهاتفي الملقى على الطاولة، وقرأتُ تلك الرسالة من دور
أن أُعير لها أي اهتمام، فهي جاءت من رقم مجهول لا أعرفُ صاحبه
فظننتُ أن أحد الأقارب قد علم بحصولي على تلك الوظيفة بطريقةٍ ما..
أعدتُ هاتفي لمكانه، ثم ميتُ موته صغرى تمنيتها لو كانت كبرى..

«الله أكبر.. الله أكبر...».

صحوْتُ على صوتِ الأذان، وأنا لا أعرفُ أذان أيِّ صلاةٍ هو. غادر
سريري، واتجهتُ نحو الطابق السفلي حيثُ وجدتُ جدتي تستمعُ لإذاعة
القرآن كما تفعلُ دائماً.. جلستُ بجانبها فأطفأتُ مُسجلتها، وبدأتُ
تعاتبني على نومي والصلوات التي فاتتني وأنا نائم، فنظرتُ إليها بع
حزينة وقلتُ:

- جدتي.. هتان ابنك وحبيبك سيبدأ أول أيام عمله غداً وأنت !
تهنئيه وتعاتبينه أيضاً!

تغيرت نبرة صوتها حتى امتلأت بالحنان وأجابتنى..
- والله سعيدة من أجلك يا هتان، ولم أكن أقصد أن أكرر صوفا
بكلامي، ولكن تأكد أن الرزق يأتي من الله لا من العمل، فاحرص على
صلاتك أولاً..

ثم ابتسمت وقالت:

- والآن تعال أعطيك قبلة بمناسبة حصولك على هذه الوظيفة يا
هتان..

اقتربت منها وقبّلت رأسها فغافلتني وطبعت قبلة بيضاء على جبيني
أحسست بعدها بنور يخرج من جبيني وكأنه صار قنديلاً مضيئاً
استأذنت بالخروج وقبل أن أترك مكاني همست جدتي في أذني قائلة:
- هتان.. إن ابنة عمك حنين ترسل لك سلامها، وقد أخذت مني رق
هاتفك وأظن أنها أرادت أن ترسل لك تهنئتها...

لا شعورياً أمسكت بهاتفني، وبدأت أبحث عن تلك الرسالة.. وجدتها.
لا شك أنها منك يا حنيني، ولكني أريد التأكد أكثر.. فقلت لجدتي ببروا
مُصطنع:

- سلمها الله وعافاها.. هل تعرفين بما ينتهي رقمها يا أمي الكبيرة..
- لا أعلم يا هتان، ولكن أنظر لدفتر الأرقام وستجد اسمها مع رقم

هاتفها مدونٌ في بدايته.. تجدهُ هناك بقربِ الهاتف..
فهمستَ رُوحِي إليَّ قائلةً..

- يا مغفل، رقمها مدونٌ في ذلك الدفتر الصغير العتيق الذي تراه
أمامك كل يوم فلا تلقي له بالاً!

وصدّقت رُوحِي بهمسِها، فتلك الأشياء الصغيرة جداً التي لا نهتمُ
بها ولا نبالي بوجودها، قد تكتنزُ أسباباً للسعادة التي نفتقدُها ولا
نجدُها في أوضحِ أمورِ حياتنا.

وكم تمنيتُ تقبيل صفحاتِ ذلك الدفتر حينما قطع شكّي باليقين، بأر
تلك الرسالة نسجتها يداكِ، إلا أن نظراتِ جدتي تجاهي منعت عني
قُبلاتي.

تلك الكلمات المستهلكة التي يستخدمها الجميع في مناسبةٍ ما،
سواء كانت سعيدة أو حزينة، نشعرُ أنها مستحدثة ولم تُكتب من قبل
حينما تأتي من الحبيب فقط.. هكذا شعرتُ بكلماتِ رسالتكِ، رغم أنه
عادية جداً، ولكن من كتبها لم يكن بالشخص العادي في قلبي.. قرأتهُ
مراراً وتكراراً، وفي كل قراءة أتخيلُ ملامح وجهكِ وأنتِ تكتبينها..

«مباركُ لك يا أخي حصولك على هذه الوظيفة.. سعدتُ بسماعِ هذا
الخبر، وفقك الله دائماً»..

كانت رسالةً جميلةً جداً، وتبعثُ في جسدي الراحة، إلا أن هناك
كلمةً واحدة فقط لم تعجبني إطلاقاً، وأفسدت عليَّ استمتاعي...



الرجاء شراء الكتاب من المكتبات
دعها للكاتب ولكي لا تضيع مجهوداته سدي!

مع تحيات فريق صفحة كتب
www.facebook.com/the.Boooks

«يا أخي!».

أنا أحبك وأنت تدعوني بـ «أخي!» أنا أريدك وأريدُ تذوق شفقتي وأنت تضعيني في منزلة الأخ! ألم تسمعي نبض قلبي حين كنت قريد جداً مني؟ ألم تشعري بانجذابي نحوك وكيف كنت سعيداً برويتك! كنت قاسيةً في تلك الرسالة، فكيف لي أن أقول لك أحبك وأنا الآخر أخاك!

ومنذُ أن علمتُ بأن تلك الرسالة أتت منك وأنا أمشي بجسدٍ بلا عقلٍ حائرًا ومشغول البال في البحث عن طريقةٍ مناسبةٍ للرد على رسالتك فأنا لا أريدها أن تعبر كأي رسالةٍ لطيفة، بل أريدها أن تكون بداية رسائل طويلة تجمعني بك وتقربني من قلبك، فالفرصة لا تأتي إلا مرة واحدة في العمر وأنت من بدأ بإلقاء جسور الوصول إلى جزيرة قلبك.. كان الطريقُ إليك صعباً جداً، فليس هناك من طريقةٍ أستطيعُ مر خلالها اقتحام قلبك بلطفٍ دون أن توصدي أبوابه أمامي، وليس هنا من أمرٍ أستطيعُ من خلاله جذبك للحديث معي.. كان علي أن أختار شيئاً ما قادراً على البقاء بيننا لنتحدث عنه طويلاً دون أن نملّ من الحديث عنه.

خرجتُ من المنزل، وأحرقْتُ علبة سجائرٍ كاملة واحتسيتُ كوبين ه القهوة السوداء المرة وأنا أفكرُ وأخطئ، حتى انتهى بي سرحاني الطويل بكتابة رسالةٍ حزينةٍ دعيتُ الله فيها أن تحزنني على كاتبها

وتواسيه بقرب منك..

«سعيدُ بسعادتك لي يا حنين رغم أنني لم أشعر أبدًا بالسعادة حيرت قبلت هذه الوظيفة التي أتت على شكل صدقة».

وانتظرتُ ردًا منك، ردًا يسعدُ قلبي حقًا، إلى أن انتظاري طال كثيرًا حتى فقدتُ الأمل بوصول رسالةٍ أخرى منك..

* * *

إنها الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، والساعة الثالثة من الانتظار.. المنزلُ خالٍ من أي علامات الحياة، غير أن خطواتي فممراته تقلقُ المختبئات في غرفهن.

أبحثُ عن سعادتي في هذا الليل المعتم، أتخيلها تأتي منك وحدًا حتى أتذكرُ أن هناك ربًّا كريمًا يتواضعُ وينزل من سابع سماءٍ إلى سماء الدنيا الفانية ليجيب دعوات القلوب الحزينة ويعطي السائل ويخفف من آلام المساكين، فأتوضأ وألقي بسجادة صلاتي على الأرض وأكبرُ وأخشعُ في صلاة وتري، حتى يأتي وقتُ الدعاء فأرفعُ يديَّ عاليًا متضرعًا للرب بأن يحيي من جديد قلبي ويهبهُ سعادة وفرحًا ويخفف عنه وطأة الحزن الكريه.

وما إن انتهيتُ من صلاتي ورفعتُ سجادتي عن الأرض حتى جاء إجابةُ الله لدعائي. جاءت لطيفةً ورقيقةً كرقعة أناملك التي كتبت لي تلك الرسالة الجديدة التي جعلتني أبتسم كطفل بريء لا يفقه العتاب

الجميل.

«رسالةٌ واردة»

«أعتذر على تأخري بالرد، كُنتُ نائمةً.. ولكن لماذا لا تفرحُ يا هتان
أخبرني عن أسبابِ حُزنك».

وبسرعةٍ فائقةٍ رددت على رسالتك..

«رسالةٌ صادرة»

«لا تُقلقي نفسكِ معي يا حنين، أكملِي نومكِ وأحلامًا سعيدةً
أتمناها لك».

«رسالةٌ واردة»

«لا لن أنام حتى تقول لي لما أنت حزين! ألم تكن تريدُ فرصةَ العمل
هذه وبشدة؟ ماذا تغيّر الآن؟».

وكم أحببتُ إصراركِ وشفغكِ على معرفة أسبابِ حزني..

«رسالةٌ صادرة»

«لم يتغير شيء يا حنين، غير أنني لم أحصل على هذه الفرصة
لكفاءتي وامتيازي.. بل حصلت عليها كمعونةٍ من قريبٍ لن يحب حتى
رؤية وجهي أمامه في كل صباح».

«رسالةٌ واردة»

«أنتَ تحزنُ نفسكِ بنفسكِ يا هتان! لا تنظرُ لأمور الحياة بهذا
الطريقة السوداء، أنجب من هذه الفرصة فرصةً أخرى تعيدُ بها بناء

علاقتك بخالك فتكسبه في صفك وتبني من خلاله مستقبلك».

وبسخرية أجبت رسالتك..

«رسالة صادرة»

«لم أعلم أنك مستشارة اجتماعية من قبل! هههه»!

فأجبتني ساخرة مني..

«رسالة واردة»

«ولم أعلم أنك صغير العقل هكذا! هههه»!

«رسالة صادرة»

«لست بصغير عقل يا حكيمة! ولكن الحزن هو من يسلب قوته

ويرميني بموجه على شواطئ اليأس».

«رسالة واردة»

«هيا يا هتان، لا تقل هكذا.. أعرف أنك رجل، والرجال لا تيأسو

بسهولة، أطردها الشيطان الذي يلعب بعقلك وكُن كما أنت، كما عرف

عنك».

وبعد هذه الرسالة، اعترتني دهشة كبيرة، وتساؤلات كثيرة، «كم

عرفت عنك»! وماذا تعرفين عني يا حنيني؟ هل كنت تبحثين عن

تفاصيلي كما كنت أبحث عن تفاصيلك؟ وهل كنت مُهتمة بي كم أذ

مهتم بأمرك؟ أنت تغويني الآن بهذا الاهتمام، أنت تكبرين في داخله

أكثر وأكثر، وتعطيني المجال لأحبك أكثر. كان لابد أن أسألك عم

تعرفينه عني، عن الصورة التي رسمتها في خيالك عني، وإن كانت تلك المعرفة جاءت من باب الاهتمام أم أنها معرفة من باب الفضول لا أكثر، ولكن رسالة وداعك جاءت سريعة تطلب مني النوم وإراحة بالي من هذه الأفكار والتساؤلات، فأجبت طلبك الصغير، وودعنا بعضنا البعض بـ «تصبح على خير» و«وأنت من أهله».

(6)

صدّقي أو لا تصدّقي، لا أملك سبباً مقنعاً لأكتب لك، فلا شيء سيعيدك إلى حدود مملكتي، ولا شيء سيغيّر من تعرجات القدر التي أخذتك بعيداً عن طريقي.

ولكني لا زلت أكتب، لا مبالياً بالأسباب، ولا مهتماً بالشكل الذي ستنتهي عليه كتاباتي.. أريد فقط مراوغة الحنين الذي يجري كطفل حافي القدمين في صدري، والتغلب على حزني حين أصنع منك أنثى أخرى تنام في وسط أوراقتي.. حتى لا أشتاق لها كثيراً، وأقبلها كثيراً حينما أشاء.. حتى ولو كانت قبلاّتي على أوراق صماء!

صدّقي أو لا تصدّقي، منذ أن أحبيبك وأنت كل أفراحي وأجمل ابتساماتي.. كنت الوحيدة القادرة على إضحاكي بلا صوت وبلا كلمات.. قربك كان مصدر السعادة لأيامي، ورسائلك كانت أجمل رساء الحب والزمان..

ويجوزُ لكِ هُنا أن تصدّقي فقط، أنكِ هبةُ الله لقلبي الحزين ولروحه الشقية، أنكِ نعمةُ الله لحياتي الفقيرة وأنكِ كنزُ القناعةِ الذي اكتفيتُ به عن البشرِ جميعًا.

فأنتِ واحدتي التي أخرجتني من كهفِ حزني، وواحدتي التي قوّست شفتاي للأعلى بعدما أرهقها كثيرًا انحناءُها للأسفل..

كُنْتِ قادرةً على إضحاكي وإبهاجي وإخراجي من دائرة الحزن ببساطةٍ وعفويةٍ. كُنْتِ الوحيدة التي تعرف طريقها جيدًا إلى قلبي من دون أن تتوه أو أن تستعين بدليلٍ.

معكِ عرفتُ أن سعادتي لا تتطلبُ أسبابًا كثيرة، فقط ابتسامةً منكِ أو رسالةً قصيرة تحمل معها تصبيحةً أو تمسيةً كانت كافيةً بأن تجعل قلبي يبتسمُ وينبضُ فرحًا.

معكِ كان للحبِ لون آخر، وشكل آخر، فأنتِ أنثى لا تتكرر، وبد يظهرُ في أولِ النهارِ ومع غروبِ الشمسِ ولا يتقيدُ بأيامِ التقويم. حُ جعلني أنسى بساطتي، وجعلني أرتدي ألوانِ العشق، جعلني أكون شاعرًا يتغزلُ بخصركِ، ومُفكّرًا أتعقُّ في تفاصيلِ روعةِ صنْعكِ. حبُ خلق قوانينَ جديدة للزمن، فالساعةُ بقربكِ دقيقةٌ، واليومُ في غيابكِ دهرٌ وتلك الثواني التي تضحكين فيها صارت مئة عامٍ من السعادةِ في قوانينِ زمني!

أحببتُكِ، وأحببتُ تفاصيلكِ كلها.. أحببتُ خجلكِ وكبريائكِ وغرو

وشموخك وتواضعك. أحببتُ اهتمامك الذي يطوقني ويعيدُ تركيبى م
جديدٍ لأصبح كما يشتهي قلبك.

تأتين في صباحي كحمامةٍ سلامٍ تقفُ على كتفي وتهمس لي أجمل
الكلمات، وتختبئين في حقيبةِ أعمالي لتشغليني بالحب وتجعلني نهاري
يمتلئ بك وحدك. وإن حل ظلام ليلي، كُنْتُ القنديل الذي ينيرُ لي سقفة
السهر، والوسائد التي تنامُ عليها همومي دون أن تُفريق.

أبحرنا سويًا لحدودٍ خارجةٍ عن وطنِ الصداقة، حتى تحدثنا عز
الحب وعن أهاته وأحلامه ووعوده الكاذبة البيضاء، وقلْتُ أنك لم تحب
يومًا، وأنت لا تريد أن تحبى يومًا، ونسيتُ أننا في الحب مسيرين
مخيرين، وأن الحب لا يعرفُ آداب الاستئذان.

وقلْتُ لك أن الحب يشبهُ المعركة إلى حدٍ ما، تحتاج لأن تُعدَّ خططً
استراتيجيةً تجعلك تتفوق على منافسك.. هو معركةٌ ولكن بلا عدو،
منافسك هو حبيبك، وهو من تريد أن تغلبه ليقع في أسر قلبك دون أن
يطالب يومًا بحريته..

وما أجملُ تلك السجون التي تكون في الصدور..
وفي معركة الحب، تتغيرُ مفاهيمُ الحرب كلها، فبدلاً من أن تنشأ
الخوف في صفوف منافسك، تزرعُ شجرةً من الأمان لتنمو بين أضلاع
من تحب، وبدلاً من استخدام السهام القاتلة، ترمي عليه وابلاً م
القبلات القاتلة! البنادق والقنابل وحتى الدبابات المقاتلة تكون على شك

آخر، شكلٍ أرق وأجمل، كالهمسات الساحرة، والابتسامات الجذابة
والقصائد الغاوية!

وفي معركة حبك كنت أنا الغازي على أرض قلبك، اقتحمتها بكلما
والقليل القليل فقط من الأشعار..

لم تكوني سهلة الإيقاع والأسر، كنت شامخة كراية حرب لم تذُل يوه
بالهزيمة

كنت عالية الكبرياء كملكة لم يخذلها يوماً شعبها الوفي..

ولكنك أنتى، والإناث ناقصات عقل!

ربما خلقن الله هكذا لتقعن في فخ حُبنا نحن معشر الرجال، وربما
لو كنن كاملات عقل لم تغرم يوماً فتاة!

وعلى نقيض نقصكن، خلقنا نحن الرجال بعقول كاملة، من أجل أ
نستوعب فكرة الحب والغرام، تلك الفكرة التي تستطيع أي أنثى ناقصة
عقل فهمها واستيعاب أبعادها أكثر من أي رجل ذي عقل كامل!

وأخبرتك أن صاحبات تلك العقول الناقصة التي تعاهد نفسها قبل
أن تعاهد حبيبها على الوفاء، على أن يكون كل زفير أمنية باستنشاق
عطر الحبيب في الشهيق القادم، وعلى أن تكون كل ابتسامة دمة في
غياب المعشوق... يا سيدتي تلك العقول الناقصة - ورب العباد - أكمل
من عقل رجل يبتسم ليغوي امرأة في الصباح، ويثمل بشفاه امرأة
أخرى بعد زوال شفق الغروب...

تلك الكلمات كانت أول اختبارٍ أعدتِه لي في مدرسة حُبكِ، وكانت أولى المفاوضات بين قلبي وقلبك على طاولة الحب.. فبعد أن نفذ صبري منك ومن الليالي التي أهيّم فيها بك، لم أجد غير أسلوب المفاجأة منهجاً لأعترف لك بحُبكِ الذي ينمو في قلبي كشریانٍ رئيسي يضخ دماً السعادة في بدني..

«أحبكِ».. هكذا أرسلتُ أول طيور حُبّي على شكل رسالةٍ قصيرة هبطت على عُش قلبك النائم. رسالةٌ قصيرةٌ حملت معها أمنيّاتي الطويّة المختصرة في أصدق كلمات الحب وأقصر كتابات العشق..

فجاء ردك بطيء كسلحفاة لا تعرف إلى أين هي ذاهبة، ولكنه أخيراً جاء رغم الخوف العظيم الذي كان يحمله بين كلماته..
«هتان! أظن أن رسالتك وصلت لي بالخطأ!».
وفي لحظة شجاعة أجبتك..

«لا يا حنين، رسالتي وصلت للشخص المقصود!».
ففي لحظات الحب الأولى، نحتاج للشجاعة، نحتاج لأن نصرّ ونعترف بالحب دون مبالاة بردود أفعال من نحبهم، فتلك اللحظات احتمل أي افتراضات.. إما أبيض سعيد.. أو أسود تعيس!
وكم تمنيت أن يكون حظي في ليلة الاعتراف أبيضاً فقط، فلا بداي أجمل من البياض..

ساعة كاملة مرت، ولا جواب منك أتى ليريح قلبي القلق. رسال

جديدةً أخرى بدأتُ بكتابتها بعد أن طال انتظاري، رسالةً جديدةً أصِفُ
لك فيها حبي لعينيك، وأخبرك فيها كم من نبضةٍ أطلقها قلبي حين كُنْتُ
منفردًا بك في تلك الجولة الرقيقة.. وكم كانت تلك الرسالة أقصر من أن
تحتوي حُبي لك، فتبعتها ثانية تحملُ وعودًا كثيرة لا أزال أريدُ الإيفا
بها رغم بردِ غيابك الذي يقرصني بمجرد التفكير بك الآن وبذلك الوعود.
ثم رسالةً ثالثة تخبرُك كيف أني أحببتُ وجودك وأحببتُ تلك الليالي التي
نقضيتها سويًا في الكتابة لبعضنا البعض وكيف أنني كنتُ أخفي هذا
الحب عنك وأظهره لك على طريقة الصداقة لكي لا تتبعدين ولا تجزعي
من هذا الحب، تلتها رابعة، إلى وصلتُ إلى الخامسة فوضعتُ فيها آخر
أُمالي، وآخر محاولاتي..

ولا أخفيك بأنني امتطيت غيمةً من السعادة عندما جاءت أسئلتُ
تريدُ معرفة المزيد عن هذا الحب الذي هطل فجأةً عليك دون أن تشعري
بسحابه المتراكم في سمائك..

«رسالةٌ واردة»

كيف؟ ولماذا؟ ولما أنا! يا هتان أنتَ ترعبُ قلبي بهذا الحب المفاجئ
وتزلزلُ كياني بهذه الكلمات الثميلة حُبًا!

«رسالةٌ صادرة»

يا حنين، كيف أحببتُك.. أممم لا أعلمُ حقًا! ولكن عينيك كانت أجمل
كمن وقعتُ فيه.. لماذا؟ أممم، لا أعلمُ أيضًا! ولكنني تعبتُ من الإبد

وأريدُ الوقف على مرسى شاطئك..

لما أنتِ؟ ... لا أعلم والله.. ولكني أحُبُّكِ، ويفعل الله ما يشاء!
«رسالةٌ واردة»

تعبت من الإبحار! وتريدُ الوقوف على مرسى شاطئتي! لا شك أنك
كنت سباحًا ماهرًا! ومرساي محطة راحة لك من العوم!
«رسالةٌ صادرة»

ما أذكاك وما أغباك.. لو أنني وجدتُ حورًا في البحر لما قصد
مرسأك، ولو أنني وجدتُ الراحة بين الموج لما تمنيتُ الاستلقاء على
شواطئك!

«رسالةٌ واردة»

هتان أنا لا أفهم ما تقوله! لا أفهم كلمة «أحبُّكِ» تلك التي جاءت
على غفلة من قلبي.. لا أفهمك! لا أفهم كيف تريدُ أن تحب بكماء!
«رسالةٌ صادرة»

أنتِ لستِ ببكماء.. أنتِ «بك ماء» أنقى من أنهار الكلام، وأرفعُ م
شعر الغرام.. وأنا راضي عن قلبي حين أحبك دون أن يلتفت لعيد
خَلْقكِ!

«رسالةٌ واردة»

تريدُني أن أصدقك؟ أن أفرح بهذا الحب كأي فتاةٍ عاديةٍ أخرى؟
حسنًا أنا لستُ بفتاةٍ عاديةٍ.. أنا حنين التي لا تعرف أبدًا كيف تنطو

«أحبك»!

«رسالة صادرة»

أنا لا أريدك أن تصدقيني فقط، أنا أريدك أن تؤمني بهذا الحب الذي يكبر في داخلي يوماً بعد يوم، أريدك أن تشعرني به وأن تعطيني فرصة لينتقل من قمة قلبي إلى مدينة قلبك ويتحول من حالة الحب من طرف واحد إلى حالة التبادل..

وانقضت ساعات الليل ونحن نكتب لبعضنا البعض، ونناقش قضايانا الحبيبة لك وخوفك من أن يكون هذا الحب زائفاً أو نزوة رجل حزين لم يجد غيرك ليحبها، حتى جاء صوت الحق بـ «الصلاة خير من النوم» فركلنا هواتفنا بعيداً وعقدنا هدنة بين قلوبنا بأن نعود للمناقشة الحب مجدداً رغم عدم اقتناع وجدانك به.

تطهرنا، وخضعنا لرب العباد، وكنت أول دعائي، وكنت أجمل دعائك همست بـ «يا رب، اجعلها لي» وهمست بـ «يا رب، جنبني حبه إن كان كاذباً»...

وفي السماء كانت دعواتنا تتسابق، ولا نعلم أيهما ستستجاب.

(7)

هكذا أحببتك..

أولاً:

كانت جميلة هي صدفةُ لقاءك.. ظننتُ أنك مجرد عابرة تلقي البسم
على الشفاهِ الحزينة.. ظننتُ أنك غريبة وسترحل قريباً..

ثانياً:

كُنْتُ مأكرةً في الأولى.. فأصبحتِ الصديق الذي أحبُّ حديثه
ويبتهجُ القلبُ بقربه..

ثالثاً:

قمتِ باحتلالِ أيامي، وتمكّنتِ من جعلِ يومي جميلاً بقربك.. ومظا
من دون شمسِ جبينك

رابعاً:

لا أعلمُ حقاً ماذا حدث في الرابعة.. ولكن قلبي أصبح يريدك كثيراً!
خامساً:

ولأول مرةٍ أشتهي تقبيلك حين تضحكين!

سادساً:

سهرتُ الليل أفكرُ فيك.. واستيقظتُ مبتسماً لأنك كُنْتُ أول أفكارِي..

سابعاً:

أحبُّكِ.. خرجتِ هكذا من دونِ تحضيرٍ أو تمرين.. خرجتِ صادقة
فكانتِ ذاتَ لحنٍ جميل..

ثامناً:

احمرت وجنتاك، وبدأت ترتعش ساقاك.. فغادرتي.. وشعرتُ بأنني
ولأول مرة منذُ أن التقيتُك - وحيداً!

تاسعاً ولا عاشراً لها:

«أحبُّك يا مجنون» جاءت محمولةً بين جناحي ملاكٍ لا يطير!
أحبُّك جاءت كمعزوفةٍ فرنسية الرنين، جاءت مثخنةً بالغنج والدلِ
الليذ. جاءت لتقسمني نصفين، نصفٌ يحبُّك، ونصفٌ يحيا بحبُّك
جاءت كشمسِ النهار المنتظر، مُشرقةً ودافئةً لا تغطيها غيومٌ ولا سحب
جاءت لتسرق هذا القلب النابض في صدري مني، وتجعله ينبض
ولك ومعك.

فبعد انتظارٍ طويل، كانتظارٍ عقيمٍ يتمنى إنجاب طفلةٍ، وكانتظار
حُبلى تتمنى أن ترى النائم في بطنها، كتبتهَا وأحسستِي بها وبلذةٍ
كتابتهَا. كتبتِ: «أحبُّك وأخافُك وأحترسُ من هذا الحب. كيف لك
تجرفني معك وأنا التي تمشي حذرةً بجانب الجدران، كالإعصار المدمر
أنت، ضربتَ مدينةَ صدري وحملتني بين رياحك وعصرت قلبي حتى
أمطر من بعد جفاف. يا مجنون الهوى.. أحبُّك وأنا في الحب مبتدئ
ومفعولٍ بهِ وأنتاك، وأنتَ الخبرُ والفاعلُ وياؤ ملكيتي!» وقرأتها أنا كطلةٍ
تعلم للتو القراءة، ببطءٍ، كلمة بعد الأخرى، سطرًا بعد سطر، ودهشةً بعد
دهشة، وإغماءة حبٍ لا أستطع أن أفيق بعدها ولن أفيق أبدًا..

فأرسلتُ إليك «أنتِ حنيني وسيدتي لما تبقى من أيامي. يا الله

أعجزُ عن الكتابةِ لكِ الآن، أعجزُ عن وصفِ بركانِ السعادةِ الذي تفجُّ بقلبي الآن.. انتظري، أعطني فرصةً أستعيدُ بها توازُني، وأنظُمُ بها دقاتِ قلبي».

وأجبتِ وأنتِ السعيدةُ بذلكِ الحبُّ «يا مجنون، دعك من هذا الجنون واكتبها لي فقط، اكتب «أحبُّكِ» لتدهشني وتزلزني وتطفئ نار شكِّي.. لن أكتبها فقط بل سأقول لكِ «أحبُّكِ» كخطابِ رئيسٍ بالانتخاباتِ فاءَ كلمةٍ حاكمٍ بعد الحروبِ منتصر، كنشيدٍ وطنيٍّ لبلادِ الحبِّ، كتغريدِ العصافير على أغصانِ الشجر، كغناء المطربين في حفلٍ بالجمهور ممثلي، كافتتاحيةٍ مهرجانٍ أو كرنفالٍ عظيم، كشموخِ صوتِ البرقِ بهِ الأعاصير».

فقلتِ «سأكتفي بها مجردةً من أي تشبيه، سأكتفي بـ «أحبُّكِ» حير تخرج من قلبك لتخجلني وتبعثر أنوثتي ثم تلملم بعثرتي.. يا من تجيد بعثرتي».

وبصدقِ كتبتُ لكِ.. «يا حنيني، لم أشعر بهكذا سعادةً أبداً، فه الشهر الماضي على أقل تقدير، ولم أشعر بهكذا حبٍّ يغزوني ويحتلُّني أبداً، في حياتي كلّها على أقل تقدير!»..

صهرني حبُّكِ كقطعةٍ جليدٍ وحيدةٍ في بردِ القطب الشمالي أشرقز عليها شمسُ الدفءِ، شمسُ الحبِّ، فانساب منها الماءُ على هيئةِ أمني



الرجاء شراء الكتاب من المكتبات
دعها للكاتب ولكي لا تضيع مجهوداته سدي!

مع تحيات فريق صفحة كتب
www.facebook.com/the.Boooks

ورجاءٍ بأن لا تغيب شمسك أبداً.

حبُّك علّمني كيف أكون نهر آمنياتٍ، كيف أكون مطر دعاءٍ.. علّمني كيف أتوب، وأغتسل من الذنوب.. رجاءً أن تُجاب آمنياتِي، فتكوني لي يا حياتِي. حبُّك علّمني كيف أكتبُ شعراً جميلاً طويلاً كجمالِ جدا الناعمةِ الطويلة. حبُّك يا حبيبتي علّمني أن عينيك أجمل طفلتين تقوله بأن هذه الحياة مجردةٌ من الفرح، من السعادة، من الحب، من البهجة دون بريقهما. حبُّك علّمني أن أكون صوتك المفقود حينما ترغبم بالصراخ؛ علّمني أن أكون الوطن الذي تجريين نحو صدره كطفلةٍ حزينة، فترمين أحزانك على صحرائه وتقولين «هنا.. يموتُ الحزن.. هنا..» يوجدُ حُزنٌ «. حبُّك الذي أعطاني حق الفرحِ ها هو الآن يسلبُ حقوقَ مني، ويهديني الحزن على شكلِ ذكرى أبت أن تموت يوماً.

أشهدتُ الله على حبي لك، وأشهدتكِ على أن أبقى أسيراً في سجنِ صدرك..

«رضيتُ بكِ حباً، ورضيتُ بعينيك ترفاً، وأشهدتُ الله بأنني لن أنس يوماً، وبأنني سأحملُك معي، في حضوركِ أو في غيابكِ، سأحملُك كما تحملُ أضلوعي قلبي، وسأسافرُ بكِ نحو سماءٍ ثامنة، نحو جنةٍ لا تطوُّه أقدامُ نساءٍ أخرياتِ».

وابتسمتي حين قرأتِي عهدي، وسافرتي كفراشةٍ ترتشفُ الرحيقَ من زهورِ العشق، ثم وضعتِ يديكِ على واحةِ صدركِ البيضاء وأجبتِ..

« وإني أَعَاهِدُ اللهَ، وَأُعَاهِدُكَ عَلَى أَنْ تَبْقَى نَخْلَةً شَامِخَةً فَمِ
 وَاحْتِي، لَا شَرِيكَ لَكَ فِيهَا، وَلَا شَرِيكَ لَكَ فِي مَائِهَا.. إني أَعَاهِدُكَ
 حَبِيبِي أَنْ هَذَا الْقَلْبَ لَنْ يَعْرِفَ مَجْنُونًا غَيْرَكَ، وَلَنْ يَنْبُضَ بِجَنُونٍ لغيرِكَ».
 تعاهدنا على الحب وعلى الإخلاص، وأشهدنا الله على صدق حُبنا
 ثم بدأنا ننسجُ رداءً مُستقبلنا معًا، ونرسمُ محياهُ بأيدينا، وندعو الله بأن
 يحيينا إلى أن نتشارك غطاءً واحدًا، إلى أن يكون صدري وسادتك، إلى
 أن تكون عيناك أجمل مشهدٍ في صباحي، إلى أن أزرع بذرة زهرتنا -
 طفلتنا - الأولى في رحمك، وإلى أن يبيض شعرك وينحني ظهري
 فأكون لك أجمل صبغة شعرٍ وتكوني لي أنعم عُكازٍ مشي.

(8)

In his birthday, she was wondering «What will make him happy
 when he has everything?»... she was desperate until she remembered
 !that he does not have.... her

أَيُّ جَنُونٍ عِشْنَاهُ مَعًا وَأَيُّ تَجْرِبَةٍ مَثِيرَةٍ خَضْنَاهَا. كُنَّا كَتَوَاهِ
 سِيَامِيْنَ لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدُهُمَا الْعِيشَ دُونَ الْآخَرِ. كُنَّا كَشَمْسٍ وَقَدْ
 نَجْرِي خَلْفَ بَعْضِنَا الْبَعْضَ وَنَحْيِي بِمِطَارِدَتِنَا كَوَكَبًا يَدْعَى الْأَرْضَ. أَيُّ
 حُبِّ هَذَا الَّذِي يِرَافِقُنِي حَيْثُمَا زَهَبْتُ، يَجْعَلُ لِظَلِّي ظِلًّا آخَرَ، يَجِ
 لِفَرَحِي فَرَحًا آخَرَ، يَجْعَلُنِي كَسُلْطَانٍ عَظِيمٍ يَتْبَاهِي بِكَ، يَتْبَاهِي

بصولجانه المرصع بزمردٍ وياقوت، يجعلُ هذه الأرض تدور تحتِي، ويجو
غيمة الهذيان تمطرُ فوق رأسي.

كان حبُّك طقسًا خياليًا لا يمكنُ التنبؤُ بميعادِ حلولِ فصوله الأربعة
كأنَّ أصحابِ ربيعٍ عندما يأتي خيرُ الصباحِ عذبًا مُتوردًا من
«صباح الخير يا حبيبي» التي تلقينها كرسالةٍ بريديةٍ في صندوقِ
قلبي، وكأنَّ يحلُ الليلُ باردًا مُتجمدًا من غيابك ومن غيابِ رسائلِكِ
صندوقِي.

كان حبُّك أجملَ حُبٍ عانقتُهُ، وأبهى عشقٍ رأيتهُ.
لا زالت تفاصيلُ لقائنا الحقيقي الأول موشومةً في ذاكرتي، لا زلتُ
أذكرُ خجلَك الذي كان يفضحُنَا، ودهشتي التي كانت تصرخُ بداخلي بـ
«يا الله يا الله.. يا لجمالِك.. يا لروعَتِك».

أذكرُ أنني كنتُ قبلُ ذلك اللقاء خارجًا مع صديقي الوحيد خالد، كُذ
نضحكُ سويًا على مشهدِ الحذاءِ الناعم وهو محلَّقٌ نحو رأسِ ذاك الشار
الذي لم يُحسن اختيارِ الفريسةِ السهلة ليتغزل بها على مرأى الجميع
وليغويها بوسامته.

حينها قلتُ ساخرًا لخالد..

- ما أغباه.. أيطاردُ فتاةً تخفي كل شبرٍ من جسدها تحتِ عباءتها؟!

فأجابني وهو الخبيرُ بهذه الأمور..

- أكادُ أجزم بأنه كان يعلمُ بأنه سيواجهُ مصيرًا كهذا..

فسألتُهُ مُستغرباً..

- إذا لمَّ عاكسها؟

- لأن الصيد الصعب ألدُّ بكثيرٍ من الفريسة التي تركضُ لصيادها..

كلماتُ خالد جعلتني أفكر بحالةِ حُبنا.. أيا تُرى إن لم تبادليني هذا الحب سريعاً لكن حُبُّك أجمل؟ أيا تُرى امتناعُك عني وتجاهلُك لحبه كان سيجعلني أحبُّك أكثر؟ ولكني دون أن تفعلني هذا كله أحببتُك جدًّا للحر الذي يجعلني أشهد بأن لا حياة إلا مع عينيك، ولا نعيمًا إلا بين ذراعيك.. حمدتُ الله أنك لم تتجاهليني ولم ترميني بحذاء قدميك.. حمد الله أنك قلتِ «أحبك» قبل أن تموت ابتهالاتي.

وسرعان ما انتهى لقائي بخالدٍ حين جاءت رسالتُك حاملةً مفاجأةً لا تخطر ببالي لحظةً واحدةً...

« في مثل هذا اليوم، ولد الرجل الذي أحبه كثيراً، ولد الحب الذي لا يولد إلا ليحبني.. في مثل هذا اليوم، أحبك أنا وتحبك سنيني... كل عام، وأنت حبيبي».

نسيتُ يوم ميلادي.. فجئت حُبلى بي، لتلدينني من جديدٍ، لتخرجيني لدنيا حُبكِ، لفردوسٍ ركانٍ بين ضلعيك، فخرجتُ ضاحكاً من رحمٍ عشقك متفائلاً بأن هذه الحياة ستكون أحلى.

«ياه يا حبيبتي.. كيف علمتي بيوم مولدي؟ لا أذكرُ بأنني أخبرتكُ مسبقاً بميعاده؟!».

وبكبرياءٍ أجبت..

«أعرفُ تفاصيلك، الصغيرة منها قبل الكبيرة، فلا تظن أنني غافلاً عنك».

«ههههه داهيةٌ أنتِ.. حسناً، أين هديتي؟».

«هاه!.. أممم، لا تستعجل عليها كثيراً، أحتاجُ لأن أُعدَّ لك هديةً تلي بمقامك.. يا أميري».

«هل يحقُّ لي الآن أن أتكبر؟».

«تكبرٌ مثلاً تريد... ولكن لا تنسى أنك أميري أنا.. ولدى ما سواي فقيراً!».

كُنْتُ مغرورةً بي، تتباهين بيَّ وكأنني مزهريةٌ عتيقة لا تصلحُ لغير شرفتكِ. كُنْتُ تدركين تماماً أنني سأتوه إن رحلتُ لوطنٍ غيركِ.

وبشغفٍ انتظرتُ هديتكِ. كُنْتُ شديد الإلحاح، أذكركِ بها بين الد والآخر.. كُنْتُ أريدُ تذكّاراً منكِ أُعانقه كلما غبتِ، كُنْتُ أريدُ تذكّاراً أحتفظُ به لسنين طويلة، حتى يأتي يومٌ أنفثُ الغبار عنه، وأقول لأطفال «اقربوا وشاهدوا أولى هدايا أمكم».

انتظرتُ وانتظرت.. حتى جاءت أجمل هدايا الله، وأرقُّ هبةٍ من واهب السماء.

«رسالةٌ واردة»

- هتان.. هل تريدُ هديتكِ؟

وبشوقٍ عظيمٍ أجبتُك..

«أكيد!».

«إذاً لا تنم هذه الظهيرة.. سأتركُ لك الهدية في غرفة الغسيل الخارجية.. تعرفها صحيح؟».

«نعم أعرفها.. ولكن كيف ستضعينها هناك!».

«لا تسأل الآن كيف.. ولكن ضع هاتفك بجانبك وانتظر رسالتي.. بالمناسبة، لا تذهب لأخذها إلا وأنت متأنق واحذر من أن يراك أحدا!».

متأنق؟! وحذر؟! يا ترى ماذا يدور في رأسك أيتها العاشقةُ المجنونة! سألتك كثيراً لما تريدني أن أكون متأنقاً، لما تريدني أن أكون حذراً؟ لما هذه الطلبات وأنا سأذهبُ لغرفة غسيلٍ منفيةٍ في آخر زوايا البيتِ سألتك كثيراً ولكنك تجاهلتي نداءاتي ولم تجيبي بشيءٍ غير أن الصب مفتاحُ سعادتي!..

كُنّا يومها في بداية الصباح، وما ابعد الظهيرة عنا، صرْتُ أعمل بتململ، أريد أن ينقضي هذا الصباح سريعاً، أريدُ أن أعود للمنزل وأكون قريباً من غرفة الغسيل.. يا لحبكُ جعل من هذه الغرفة الصغيرة المهمشة شيئاً أشتاقُ لرؤيته.

وكما تمشي السلحفاة على مضمار السباق انقضى صباحي، وعدتُ مُتشوقاً إلى المنزل.. فتحتُ الباب وإذا بجديتي تقول لي: «انتظ انتظر يا هتان... حنين ارتدي عباةك يا ابنتي»...

آه.. أنتِ هنا! متى جئتِ ولمَّ لم تقولي أنكِ جئتِ؟! آه منكِ لو علم
أنكِ هنا لمَّ انتظرتُ لأن ينتهي وقتُ عملي.. تبًا أضعتي عليَّ فرص
استراق النظر إليك... أضعتي عليَّ فرصة الاختباء خلف النافذة من
أجل أن أرى عينك..

ارتديتِ عباةًكِ وسمحت لي جدتي بالعبور أمامكِ.. عبرتُ وعينا
تنظرُ للأرض.. وكنتُ أعلمُ أنكِ تنظرين إليَّ، كنتُ واثقًا أن عينيكِ
تدعُني أعبُرُ أمامها دون أن تلتقط صورًا عديدةً لي لتحفظينها في
ذاكرتكِ.. عبرتُ بابتسامةٍ على ثغري، ابتسامةٌ مكرٍ وحبٍ لتلك الناعه
التي تنظرُ لجسدي، وما إن دخلتُ غرفتي حتى جاءت كلمة «أحبكُ»
سريعًا منكِ، رددتُ عليها بـ «أموت في حبكُ» ولم أكن أدركُ وقتها أنن
أحيا بحبكُ، فحبكُ أجمل حياة، وما دونه موتٌ أسود..

رحتُ أفكر عميقًا بما جلبته لي، وبما ستهديني إياه.. ربما باقًا
وردٍ، ولكن كيف ستخفينها عن أنظار جدتي وأنتِ معها الآن؟!.. أو
رسالةً منكِ؟ تكتبي لي فيها أنكِ تحبينني، أنكِ تريدينني؟ أو صورة لكِ
صورةً لقمرٍ انتظرتُ رؤيته كثيرًا.. فأنا لم أركِ أبدًا، وأحببتُ عينيكِ أوًا
وأغمضتُ عينيَّ عن ما تبقى من حُسنكِ... أو دميتكِ؟ تلك الدمية الت
كنتُ أكرها كثيرًا كثيرًا في كل مرةٍ تخبريني أنكِ لا تستطيعين النوم إ
عندما تحتضنينها؟!.. لا أدري، لا أدري.. ولكني سأقبلُ بالقليل منكِ
سأقبلُ بأي ثمرةٍ تقطفينها لي من أغصانكِ.. فالقليلُ منكِ، كثيرٌ ف

قلبي...

مضت خمس وثلاثون دقيقة من التفكير.. حتى جاءت اللحظة
المرتقبة..

«رسالةٌ واردة»

«حبيبي، اذهب لأخذ هديتك الآن، ولكن أرجوك كُن حذرًا من أن
يراك أحد وأنت في طريقك».

رمىْتُ هاتفي، وارتديتُ ثوبي، وبدأتُ أمشي بسرعةٍ لكي لا يرانه
أحدٌ وأنا أخرجُ. متشوقٌ لرؤية ما وضعتَه لي، وكأنني طفلٌ لم يُهدَم
قبل لعبةٍ.

أسابقُ خطواتي نحو تلك الغرفة الصغيرة المظلمة حتى وصلتُ إليه
فكان بابها مفتوحًا قليلًا، فحشرتُ نفسي في تلك الفتحة الصغيرة
وأغلقتُ الباب خلفي.

* * *

(9)

أهٍ منك.. قتلتيني.. أهٍ منك.. كسرتيني.. أهٍ منك يا حنيني، ليت الأيا
تعودُ بنا، أو ليت هذه الأرض تنشق الآن وتبلغنا، ليتنا لم نحب بعضنا
يومًا، ليتنا التقينا مُصادفةً ثم مضينا في طريقين لا تجمعُهما نقط
التقاءٍ. ليتك امتنعتي عن حبي، لكن الأمر أهونُ على قلبي، لقلتُ

أذهبى للجحيم يا من لا تدركين معنى نبضي الجميل، لقلتُ: غيباً
أضاعت على نفسها قُرب الرجل الوحيد الذي قد يقبلُ نقصها بكماله
ولكنّ الآن أضحكُ بدلاً من البكاء على الورق.

أخبريني ماذا أفعلُ حين يجنُ جنونُ حنيني، أخبريني ماذا أفعلُ
حين أتذكرُك، حين أتذكرُ هديتكِ، وحين أتذكرُ لحظة مصرعي في
محرابِ شفّتكِ. أخبريني أيُّ زوايا الذكرى لا أجِدُكِ فيها، أخبريني أيُّ
مناهاضِ الحبِّ لا تكونين أنتِ نهايتها، وأين أجِدُ قمرًا لا يرسمُ وجهك على
سطحه. ليتكِ لم تقولي «أحبُّكِ» يومًا، لبقيتي في عيني حُلماً، ولبقيتِ
في مُحيطكِ صديقًا، صديقًا لا يموتُ حزنًا إن رحّت عنه. أخبريني الآن
لمن أشكي هذا الحزن الثائر في صدري، لمن أُغني أجمل الحاني، لمن
أكتبُ أجراً قصائدي، ولمن أشكو جراح قلبي.

كاذبٌ لو قلتُ لك، تجاوزتُ مرحلةَ غيابكِ وأني سعيدٌ في حياتي
بعدما رحلت من حياتي، وأن الليل لا زال جميلاً، أسهره فرحاً وسعيداً،
وأن الصباح لا زال فاتناً، أقضيه مبتسماً ومتفائلاً، وأن يومي يسري
بسلامٍ دون دموعٍ وأهاتٍ. كاذبٌ يا قاتلتي، لو في يومٍ أخبرتكِ، أنكِ
لستِ سوى فترة طيشٍ ومراهقةٍ، وأن حُبَّكِ اندثر في قلبي من يومٍ هجر
صدري، وأني لم أعد أقلبُ ذكرياتي معكِ، وأني لا أسرحُ فيكِ ولا أعبدُ
حدوداً لأرتجيكِ ولا أحنُّ لعينيكِ ولخديكِ وكفّيكِ، وأني تغلّبتُ عليكِ
ونسيتُ كيف كانتا لذيذتين شفّتكِ! كاذبٌ لو قلتُ لك أن الحنين -

حنيني - لا يستوطنني ولا هو دائماً يقتلني، وأن أشواقني ماتت منذ أن
محبتني من قلبك طارت. كاذبٌ يا حنيني حين لا أشتاقُ إليكِ وحين أكتُ
لغير خديكِ حين أُصدِّقُ أنني نسيْتُ من أنتِ.. يا كل ما أملك!

أكذب أنا حين أقول أنني بخيرٍ وعيناكِ بعيدتانِ كل البعدِ عن ناظري.
أتساءلُ دائماً، كيف لي أن أنساكِ، كيف لي أن لا ألتفت نحو بقايا
المنتثرة في أرجائي، كيف لي أن أعبر أمام تلك الغرفة الصغيرة دون أن
أشعر بغصةٍ عميقةٍ في حنجرتي فلا أقول أشتقتُ إليكِ.. أما زلتِ
تذكرين؟ ماذا لقيتُ في تلك الغرفة؟ ماذا كانت هديتُكِ؟ ماذا كان
تذكركُ؟ أما زلتِ تذكرين حجم تذكراكِ؟ وحجم دهشتي به؟

وإن لم تذكرني، تعالي أذكركُ ... تعالي أذكركِ بتلك اللحظة التي
دخلت فيها تلك الغرفة، وأغلقتُ الباب خلفي دون أن أعلم بمن يختبئ
فيها. أغلقتُ الباب ثم استدرتُ لأبحث عن صندوقٍ أو علبةٍ ما، فما وجدته
أمامي غير عينيكِ، تحدَّقُ بي بخوفٍ، بشوقٍ، وبخجلٍ.

وجدتُكِ أنتِ يا أجملَ هدايا القدر، وجدتُكِ مختبئةً بين سلال الغص
كلؤلؤةٍ مفقودةٍ، ترتعشُ يداكِ من البرد، فارتعش قلبي من جمال عيني
وقفتُ أمامكِ حائرةً ومندهشةً، لا أعلم ماذا أفعل في هكذا لقاء ولا أعلم
أحلمُ هذا الذي أنا به الآن أم أنكِ الحلم بذاته.

أربعُ خطواتٍ تفصلُنني عنكِ، لا حواجز بيننا، وحيدانِ وقلبانِ يترقبانِ
مرتديةً عباؤكِ ويُدكِ ممسكةً بلثامكِ، وكأنكِ تخافين من أن تبانِ حُمر

خديك المشتعلين خجلًا.

عيناى تحدق مباشرةً في عينيك، وعيناك تحدقان في بلاط الأرض
حتى رفعت رأسك وبرقت مقلتك.. نظرة بنظرة.. والبادئ أظلم! فابتسم
واقتربت أكثر منك، وفي كل خطوة نحوك شعرت بأنني أطيّر نحو جنتي.
«حبيبتي، أه منك.. ماذا فعلت بي، أترميني في هاوية الغواي
ببساطة هكذا.. أحبك يا مجنونة.. أحبك يا شقية.. أحب» وما ردعه
عن إتمام الثالثة الحب إلا عناق اقتحمت به صدري وشدت يديك حر
ظهري، وكأنك تريد أن تختبئي بين ضلوعي، وتطوقيني بأدنى حنان.
كنت أعتقد أن الإناث ذوات سواعد ضعيفة هشة، إلا أن العناؤ
يجعلن ذوات زنود عاصرة!

تمنيت أن لا ينتهي ذلك العناق، تمنيت أن يتوقف الزمان بي وأند
في أحضانني، أو أن نتحول لتمثالين متعانقين يرانا كل المحبين في
ميدان العشق. ووضعت يدي على رأسك ورحت أشاغل شعرك بأصاب
وأهمس بكلمات الحب التي تجعلك تدركين كم هو جميل عناقني، فس
لثامك وبان وجهه وجنتك، بان وجه القمر الحقيقي الذي أنار عتمة فؤادي.
كنت واثقًا بأنك جميلة، ولكنني لم أكن أعرف أنك جميلة للحر الذي
يمكن لعقلي إستيعابه. لم أكن أعرف أن في خدك كمين محفور يدع
غمازة، لم أكن أعلم أن شفتيك تنافس ألوان الورود الزهرية وتغلّب
بلونها، ولم أكن أدرك أن تلك «الغرة» المنسدلة على جبينك مدعاة للفتنة.

حين رأيتُ وجهك شعرتُ بأنني نورسُ قطع المحيط، حتى هبط عا
شاطئ جزيرة مفقودة.. جزيرة ذات كنوزٍ وياقوت، لم يمسسها من قبل
قرصان بحرٍ لنيم!

وبداً شيطاني بالهمس اللعين: يا مغفل.. أكتفي بالتحديق، وأمام
أنثى أشهى من تذوقٍ شهد العسل!
فأجبتُه بعقلٍ مفتون: لا والله لن أكتفي بالتحديق بها، لن أكتفي من
عناقها حتى أتذوق السكر من ثغرها!

وذبتُ كالسكر في كوبٍ شايٍّ جيدٍ إذابتي، وغرقتُ في نهرٍ نقيٍّ عذ
يسري بين شفتيك، وبين خديك وشفتيك ثملتُ وترنحتُ!

ولا أذكر ماذا حصل بعدها، أو أنني أذكر ماذا حصل بعد القبلة
ولكني لا أريد أن أذكر! ما أذكره حقاً هو أن عقارب ساعتني جُنَّ جنونها
وراحت تدورُ بسرعةٍ عجيبةٍ حتى رن هاتفك ليبلغك بوصول السائو
أشرت لي بإشاراتٍ لم أفهمها ولكنها كانت تدلُّ على أنك سترحلين الآن
فعانقتك مرةً أخرى، عناقاً يسألك البقاء. وهممت بارتداء عباءتك التي
سقطت عنوةً ثم تحسست وجهي بيدك ومررت أصابعك في حديقة ذقذ
وقبلت يداي كفتاةٍ شاميةٍ تطلبُ الرضى من حبيبها.. ورحلت.

رحلت وبقيت وحدي هناك أطالعُ زوايا الغرفة وأتذكرُ ماذا حدث فيه
فابتسم وأضحك على جنوننا.
رحلت وبقي عطرُك يرافقني...

خرجتُ من تلك الغرفة مُنتعِشًا، خرجتُ بروحٍ أُخرى، روحٍ تقسمُ بأنّ !
تبتعدُ أبدًا عنك، وأنّ تقضي باقي عُمرها رهينةً لتلك القبلة، لذلك العناق،
ولذلك الجنون الجميل.

خرجتُ رافعًا رأسي للأعلى، أنظرُ للحياة بنظرة تفاؤلٍ كمريضٍ لا
شُفيَ من أوجاعه. أمشي وأشعرُ بأنّ الحيطان والأبواب وبلاط الأرض
ينظرون نحوي ويحاولون اكتشاف من أين أتت تلك البقعة الحمراء
الداكنة على عُنقي.. أشعرُ بأنني في دائرةٍ محاطة بنظراتٍ الشكِّ ولكن
لا أبالي بنظراتهم وإن سألوني سأقولُ نحلةً شربت من رحيقي!

(10)

تعلمتُ الكثير منك، ويا ليتني علّمتُ كيف لا ترحلين عني..

قد يُحب الشاعر عشر نساء، ولكنه لن يكتب إلا في واحدةٍ منهن..
تلك الواحدة هي من علّمتُه كيف يكتبُ قصيدة.. كيف يخلق نصّ
يحتويها.. تلك الواحدة هي من علّمتُه حروف الحب وأبجدية العشق لكي
يكتبها حبًا حينما تبهجُه بقربها، ويكتبها حُزنًا حينما تقتله بغيابها..

ولكنني لم أكن شاعرًا من قبل أن ألتقيك، لم أكتب يومًا في أنثى
غيرك ولم أعرف كيف تكتبُ الأنثى وكيف تكتبُ القصيدة للأنثى.. أنتِ م

جعلتيني أنسى بساطتي في التعبير عن حبي لعينيك، جعلتيني أرتدي
ثوباً آخر مطرزاً بكلماتٍ وحروفٍ تحملُ معها على سطورِ العشق..
سأكتبُ حين لا يبقى كلامٌ يُقال
سأكتبُ بلغةٍ جديدةٍ وفريدة
لغةٌ لم تُقرأ من قبل..
لغةٌ لا تُقرأ إلا بالقلب
لغةٌ لا تحتاجُ لحروفٍ كثيرة
فقط.. ألفٌ وحاءٌ وباء
تليهم كافٌ كبيرة!
سأكتبُ شعراً مُلحناً..
وسطراً بالغزلِ مُقنناً..
سأكتبُ لتحيا بك الأوراق
ولترقصُ على ذكراكِ كلُ الأقلام
ف تضحكُ كلمةً.. وتذوبُ كلمةً
ويولدُ سطرٌ.. وينحني سطرٌ
حتى تخرجُ من بين الكلماتِ

قصيدةُ فرنسيةُ الرنين..

عذبةُ الترنيمةِ كعزفِ نايٍ عظيمٍ

فـ تغبُطُكِ عليها فتاةُ

أحبت وتمنت

يوماً أن تكتبَ فيها قصيدةً

ترقصُ عليها كلُّ إناثِ القرية!

وابتسمتِ عندما قرأتِ شعريَ وعضضتِ شفَتَيْكِ خجلاً وضمـ
دُمَيْتُكِ ولم تجدي غير «أحبُّكِ» مخرجاً لكِ من الخجلِ.

* * *

بعد ذلك اللقاء.. أو بعد ذلك العناق كان لابد من أن أتعلّم لغةً جديدة،
لغةً أستطيعُ أن أفهمكِ أكثر من خلالها، أن أفهم تلك الإشارات التي
صنعتها بيديكِ يومَ اللقاءِ دون أن أدرك معناها، ولم أجد غيركِ يا أجم
معلمةً في حياتي. وكم كُنتِ فرحةً حين أخبرتُكِ بأنني أريدُ أن أتعلّم لغةَ
الإشارة، وسألتيني..

- حبيبي.. لمَّ تريدُ أن تتعلمها؟

وأجبتكِ بحبٍ..

- لكي أفهم غضبكِ وخجلكِ وكلمةَ أحبُّكِ التي تصنعينها بيديكِ..

- لا تقلق، غضبي وخجلي ستراهما على وجهي قبل يدي..
- ماذا عن «أحبك»؟
- أممم حسناً، حينما أريدُ أن أقول «أحبك» سأشير بأصبعي نحوك ثم سأغرسه بوسطِ صدري..
- الله ما أجملهُ من تعبيرٍ.. هيا هيا أريدُ أنا أراكِ وأنتِ تفعلينها..
- يا مجنون، كيف ستراني؟
- الأمرُ بسيطٌ جداً.. لديكِ «سكايب»؟
- أنتِ مجنونٌ فعلاً!
- هيا يا حنيني، أريدُ رؤيتكِ..
- حدّد طلبكِ يا هتان! تريدُ أن تراني.. أم تريدُ أن تتعلم لغة الإشارة مني!
- الاثنان معاً!
- ولأنكِ عاشقةٌ مغرمةٌ بالذقن لم ترفضي طلباً يضعُ ذقني أما ناظريك..
- تلك الليلة كانت جميلةً بكل جنونها، ففي الوقت الذي كُنت فيه ترتدي أجمل فساتينكِ وتكحلين مقلتيكِ وتضعين الأحمر على شفتيكِ، كُنتُ أذ أهدبُ ذقني وابتسم لمرآتي وأسألها «ما رأيكِ؟ هل ستعجبُ أكثر بي؟» وأشعرُ أنها تجيبُ بـ «لا تقلق، فأعجابُها بكِ فاق حدود الإعجاب!»..
- واستلقيتُ أمام شاشة حاسبي أنتظرُ تلك العلامة الخضراء التي

تبشّرُ بحضورك. وعلى عكس ما فعلته ساعتي يوم لقائك، مضت دقائق
الانتظار ببطءٍ يشعلُ نيران شوقي. وفي كل دقيقةٍ انتظارٍ كنتُ أتخيّلُ
أتخيّلُ ماذا سترتدين لي وبأي طريقةٍ ستبعثرين شعرك.. أه على شعركِ
أه على نهر الفتنة المنتصف بين شلالاته.. أشتهي مُشاغلته بأصابعه
إلى أن تنامي على صدري، ومداعبته بأناملي حين تغسلينه بـ
«الشامبو»!

تخيلتك كثيرًا ورسمتُ حُسنك في ألفِ لوحةٍ خيالية، وحين ظهرت
صارت قبيحةً كل لوحاتي!

لا شيء ينصفُ حُسنك، لا هذا النص يستطيعُ أن يجيد رسمه ولا
ألفُ روايةٍ تقدّرُ على استيعابِ صفاته.. طاغيةُ الحُسن أنتِ لحدٍ
تلاحقك لعناتُ النساءِ حين تعبرين أمامهن فيتلاشي حُسنهن في الهواء!
ورغم أنه لقاءٌ افتراضيٌّ في عالمٍ افتراضيٍّ إلا أنني شعرتُ بأنك
حقيقةٌ أمامي وكأنني أراك للمرة الأولى.. للدهشة الأولى.. لنبضة الحد
الأولى!

كان جمالك مُربكًا، يأكُلُ صوتي ويجعلني أتحدثُ بلا كلمات.. كما
أسيرًا، لا يعبرُ أحدُ أمامه دون أن يفقد قلبه.. ولشدة طغائه تجمدتُ أذ
أمام شاشتي، أنظرُ إليك.. أنظرُ لشفتيك، لعينيك، لذلك المفرق الناء
بين تلالِ صدرك!

وفجأةً اختفت صورتك من أمامي وحلّ مكانها سوادٌ قطع لحظاء

استمتاعي بمشاهدتك، ظننتُ أن الاتصال قد انقطع إلا أن ذلك الصندوق الصغير في أسفل الشاشة نبهني برسالة منك..

- هتان.. أستفعلُ هذا طوال محادثتنا! لن أعيد تشغيل الكاميرا عقاباً لك!

- ههههههههه، وماذا عساي أن أفعل؟! جميلةٌ جميلةٌ أنتِ! ولا أستطيعُ فعل أي شيءٍ في حضرتكِ!

- حسناً استمر على هذا الفعل ولن تراني مرةً أخرى!

- لا لا!! سأكون مُهذباً!

- وعد؟

- وعد.

- أحبك..

- وأنا أحيا بحبك..

كُنْتُ تخجلين من نظراتي تجاهكِ، تخجلين برؤية الدهشة في بؤرة عيني، فتهربين مني لأنني فقط أذوبُ حينما أراك!

عادت صورتكِ من جديدٍ أمامي، وبدأ أول فصول التعليم.. كُنْتُ تشيرين بيديكِ ثم تكتبين ماذا تقصدين بهذه الإشارات، فتعلمتُ منا كيف أصنعُ حرف الهجاء بيدي، كيف أجعلُ الشمس تشرقُ من كفه وتغربُ في راحةٍ كفيٍّ الأخرى، وكيف أمسحُ على صدري لأقول لكِ أنم بخير.



الرجاء شراء الكتاب من المكتبات
دعها للكاتب ولكي لا تضيع مجهوداته سدي!

مع تحيات فريق صفحة كتب
www.facebook.com/the.Boooks

وكنْتُ تلميذاً نجيباً فذاً، يسألُ عن الصغيرة والكبيرة، لا يفعلُ عن أ؛
معلومةٍ تذكر، يلقي كل انتباهه لمعلمته التي تكافئه بقبلةٍ تبسمُ قلبه
وتغره..

* * *

استمرت لقاءاتنا الافتراضيةً لأيامٍ كثيرة. خلال تلك الأيام كبرت
علاقتنا وأصبحنا قريبين من بعضنا كرئتین في صدرٍ واحد.
كان كل شيءٍ يمهّدُ الطريقُ لي لكي أطرق باب بيتها، كان كل شيء
يقول لي أذهب وطوّق أصبعها بخاتمٍ وعهدٍ غليظٍ بينك وبين أبيها.
لم أكن بحاجةٍ لشيءٍ يكلمني لأتقدم لها، فقط كنتُ بحاجةٍ لأكمل
نصف ديني بها، ولأكمل شريط السعادة في حياتي حينما أكون أباً
لطفلها.

كنتُ حين أتخيلُ أنها ستكون زوجةً لي، أشعرُ بدغدغةٍ ناعمةٍ ف
شرايين قلبي، دغدغةٍ تضحكني كثيراً كطفلٍ في المهد. كنتُ أشعرُ
بأنني سأقبلُ على أيامٍ مليئةٍ بالحب والفرح، أشعرُ بأنني سأقبلُ على
صباحاتٍ رقيقةٍ تشرقُ من عينيها، وأمسياتٍ حمراء تخبئُ فـ
أحضانها.

تلك اللحظة حينما تطلقُ العنان لمخيلتك نحو مستقبلٍ ترسمه
بنبضات قلبك وبأمنياتك مع من تحبُ رؤيتها، مع من تريدُ أن تستيقظ
بسبب شعرها المبعثر على الوسائد، مع من تتمنى أن تقبلها يوماً بلا

إثم..

تلك اللحظة جميلة جداً!

لحظة العوم على موج الخيال جعلتني أمشي بقدماي نحو طريق حقيقي..

مشيتُ بقدماي نحو أمي.. أمي التي أفنت عمرها في سبيل سعادتي وسعادة أختاي، اليوم هي تمزق قلبي إرباً إرباً وتلقي بأجزاء في عمق بحر الحزن.. أمي التي أحبها جداً ولم أظن أنني سأكره قولها يوماً، اليوم كرهت قولها وتفكيرها ولم يشفع لها في قلبي إلا أنها حملتني تسعة أشهر في رحمها وأن جنة ربي تحت قدميها.

كيف لك يا أمي أن تمنعيني عن سعادتي، أن ترفضني أجمل قدر كان سيكتب لي.. كيف لك أن تألميني هكذا وأنت التي سهرت ليال طويلة تداوين أوجاعي.. كيف لك أن تقول « لا » في وجه ابتهالاتي وأنا طفلك المدلل الذي لم يسمع قبلاً لاءك!

لم يكن رفضك مقنعاً أبداً يا أمي.. لم يكن عادلاً.. لم يكن منصفاً كان قرار رفضي لا استئناف فيه، كان قراراً عنصرياً قاتلاً.. الآن بكاء.. خرساء؟ لا تستطيع النطق؟ لا تستطيع إجابة الصوت؟ ألم تعلمي يا أمي أنني رضيت بصمتها الجميل، ورضيت بثغرها الباس الساكت وفضلته على ألف شفاه كاذبة؟ ألم تعلمي يا أمي أن كند أسمع قهقهات الفرح في مستقبلي منبعثة من صوت حلق أذنيها؟

وَألم تعلمي يا أمي وللمرة الأولى أحسستُ بأنكِ لستِ بأمي!
كنتُ أسخرُ دائماً على لقطاتِ العقوقِ في مسلسلاتنا العربية، تلا
اللقطات التي تظهرُ تحكُّم المرأةِ ببعْلِها وتحوُّلهُ لناكِرٍ معروفٍ يقسو علم
أمه.. كنتُ أقول إنها دراما مبالغُ بها، أو حباً جنونياً لا يمكن أن أراه
على أرض الواقعِ أبداً.. وها أنا أقسو على أمي الآن من أجلك.. م
أجل حبٍ وضعني على هاويةِ الجحيم دون أن تعلمي أنتِ يا حبيبته
بثورتي على حُكم أمي..

لم تكوني تعلمين أبداً أنني أردتُ اختطافكِ من منزلكِ برضى أهلكِ
لم تكوني تعلمين أنني أناقشُ تفاصيل فُستانكِ الأبيض بيني وبين أمي
كنتُ أريدُ أن أفاجئكِ.. كنتُ أريدُ أن أرد دين هديتكِ بهديةٍ تلقيكِ ف
أحضانني..

كنتُ أريدُ وأريدُ وأريد.. ويفعل الله دائماً ما يريد...
لم أخبرها أبداً بما حدث معي، بما قالتَه أمي، صرتُ أمثلُ السعاد
عليها، أكذبُ وأخبرها بأن يوم اللقاء الحقيقي سيأتي قريباً وسنفرحُ معاً
وسنبكي من الفرحة معاً..

أصبحتُ تعيشاً حين أقرأ رسائلها، حين أقرأ كلمة «أحبك» فيها
وحين أقرأ عهداً عقدتها في مرحلة هيامٍ وأصبحت الآن أعلم أنها قد لا
تتحقق أبداً.

قلَّت رسائلني لها، قلَّت كلماتُ الحب التي أكتبها لها.. بدأتُ أهمله

كثيرًا، أهمل حاجتها لي ونداءها..

كُنْتُ أَخْتَمُ مُحَادَثَتَنَا بِقَوْلِ «لَا حَرَمَنِي اللَّهُ مِنْكَ يَا حُلُوتِي»، وَهِيَ أَذْ
الآن أَحْرَمُ نَفْسِي مِنْكَ، أَحْرَمُ قَلْبِكَ مِنْ قَرِيبِي دُونَ أَنْ تَعْلَمِي لِمَا هَذَا
الْحَرَمَانُ وَلِمَا هَذَا الْبَعْدُ الْقَاسِي.

(11)

ديالا، طفلةٌ ولدت في بيتٍ ريفيٍّ بمدينة بيروت اللبنانية. كانت عائلتها
ديالا تعيش حالة فقر تقتل طموح أبنائها من إكمال دراستهم، فلم يكن
قادرين حتى على شراء الكتب والأدوات الدراسية التي يحتاجها
الصغار. حالة الفقر تلك جعلت ديالا تؤمن بأن لا مستحيل في هذه
الحياة. فقد كان طموحها كبيرًا، ترى أنها نمت في الرحم الخطأ، فمن
مثلا - في اعتقادها - لا تصلح إلا أن تكون أميرة محاطة بالخدم.
كانت دائمًا تلعن حظها البائس الذي جعلها ابنة لمزارع فقير، وكانت
تهدد عائلتها دائمًا بأنها ستهرب منهم يومًا ما، ولكن أبويها لم يصدقوا
قولها، كانا يعتقدان أنه كلامٌ مراهقة متضجرة من حالة أهلها
الاقتصادية، إلى أن صحا في إحدى الصباحات المؤلمة ووجدا سريرها
محشوًا بالقطن حاملًا رسالة مفادها «لا تبحثا عني.. أنا أحبكما ولكن
لا أحب حياتي معكما.. وداعًا».

بحث عنها أبوها في كل شوارع بيروت، لم يترك مكانًا إلا وقصده من
أجل أن يجد أثرًا لها. كان يضع كل أسبوعٍ إعلانًا في صفحة المفقودين

بإحدى الصحف المعروفة، وكان يتوسل لصديقاتها كل يوم أن يخبروه إر
كن يعلمن بمكانها، ولكن لا واحدة منهن تعلم بمكانها. سريرها الخشبي
الذي يئن من أي حملٍ يستلقي فوقه أصبح حزيناً يشفق لعانقته
مجدداً، وطاولتها الخضراء في مدرستها ترفض أي فتاة تحاول
تملكها. كل شيءٍ افتقد وجودها وصراخها وتذمرها وغنجها المترف.
ديالا ذات الثامنة عشر عاماً اختفت ولا أحد يعلم أين هي!

- صباح الخير يا جدتي..

بأنفاسٍ متقطعةٍ وعيونٍ حزينة.. أجابت:

- صباح الخير هتان..

- ما بك يا أمي؟ أرى ماءً محبوساً في عينيك!

نطقت والدمعة تبلل خدها..

- شاخ القلب يا بُنيَّ وقربُ موعدُ الرحيل.. أسمع دقاته.. أسمع ندا

الموت في داخلي..

بروحٍ خائفةٍ وقلبٍ منكسرٍ أجبتُها..

- ترحلُ روحي إن رحلتِ يا أمي الكبيرة.. ويموتُ قلبي إن دمع

عيناك.. هاكِ قلبي وهاكِ عمري وابقِ أنتِ شمعةً مضيئةً في عت

الحزن..

بغضبٍ وحنانٍ ردت:

- يا الله الموتُ أحبُّ إليَّ مما يقولُ هذا الغلام.

وبصدقٍ دعوتُ:

- يا الله الموتُ أرحمُ عليَّ مما تقولُ هذه الوردة.

- وردة؟! أي وردةٍ أكون يا هتان..

- وردةٌ عبيرتها رائحةٌ عودٍ عربيٍّ أصيلٍ كأصالةٍ وفائها..

فابتسمت كما تبتسمُ العذراء، وكما تبتسمُ دائماً لمغازلاتِ جدي الذي
كان يراها وردةً لا تذبلُ أبداً..

- هيا يا جدتي أخبريني ما بك..

- لا أعلم يا هتان، ولكن أشعرُ أن قلبي لم يعد يحتملُ نبضاً
أخرى..

- لا تقولي هكذا يا جدتي، وساويسُ شيطانٍ وسيهربُ منك ح
تذكرين الله..

- لا إله إلا الله، محمدٌ رسول الله..

- أطلال الله بعمرِكَ يا نور حياتنا... أعرفُ أنك لا تحبين المستشفيات،
ولكن كوني مستعدةً حين أعود من عملي سنذهب للمشفى ونطمئن أكثر
على صحتك..

- لا يا هتان، لا أريدُ أي طبيبٍ أو فحصٍ.. أنا بخير..

- لا تحاولي فلن ينفعل أي شيء مع عنادي.. كوني مستعدة..
ودعها وهي تردد بأنها لا تريد أن تذهب للمشفى وخرجت لعملي
وأنا قلق عليها..

ديالا الهاربة من الفقر التقت برجلٍ وسيمٍ ذي مالٍ عظيمٍ أعجب
بجمالها وبنحفٍ خصرها وبتلك الشفتين المكتنزتين فعرض عليها فرص
النجاة من إعصار الفقر، عرض عليها زواجًا ذا مصلحةٍ متبادلةٍ بين
الطرفين. فهو يريد تذوق هذا الجمال الذي تملكه، وهي تريد ذلك المال
المتراكم في خزانته. التقيا قبل أسبوعين من ليلة الهروب وكانت صديقتي
سلمى هي حبلُ التواصل بينهما. كانت سلمى التي تكبر دياالا بأربع
أعوام تعمل في مجالٍ دنيءٍ تبيع فيه أجساد الفتيات الفاتنات لأشد
الرجال! كانت وظيفة سلمى هي أن تبحث عن الفتيات الفقيرات
الجماليات وتغريهن بالمال ليهربن من منازلهن ويتزوجن - وأحيانًا لا
يتزوجن - رجالٍ أغنياء وتتقاضى هي حزمةً من النقود نظير أعماله
القدرة.

في بداية الأمر لم تقتنع دياالا بالفكرة، كانت خائفة من أن تهرب مع
رجلٍ لا يحسن معاملتها، يؤذيها ويأكل جسدها ثم يرميها عظمًا لكلاء
الطريق. فكّرت كثيرًا وبكت كثيرًا من شبح الخوف الذي يلاحقها. أتهرد
من منزل أبيها وترتمي في أحضان رجلٍ غريبٍ لا تعرف عنه شيءٍ سو

أنه غني؟ ولكن لما لا تهرب؟! لما لا تنتهز هذه الفرصة التي سترفعها من وطأة الفقر إلى سماء الغنى؟! أليس هذا ما حلمت به؟ سفرٌ وما وحقائب غالية الأثمان وطاولة في درجها الأول قلائدٌ وياقوتٌ وعلء سطحها مستحضراتٌ تجميلٍ بألوانٍ عديدةٍ وخزانةٌ مليئةٌ بالفساتٍ القصيرة المستوردة من فرنسا وأحذيةٌ صنعت في إيطاليا؟! أترفضُ كـ هذا وترضى أن تبقى في منزلٍ أبيها تغسلُ ملابسهُ التي تغيّر لونُها مر كثرة الطين التي تحمله بين خيوطها وتساعدُ أمها في الطبخ للغير مـ أجل أن يحصلوا على مالٍ يسدُ حاجتهم؟!

سلمى تتصل بها كل ليلةٍ وتخبرها بأن من ينتظرها قد لا يصبرُ أكثر، عليها أن تقرر بسرعةٍ، فأما أن تهرب وإما أن تبقى بين جدران منزلها المتهاك.

وافقت ديا.. وافقت على أن تترك أهلها حزينين خلفها وأن تكتفي بسعادتها فقط. وافقت بعد أول لقاءٍ بينها وبين ذلك الرجل الذي يكبره بثلاثين سنةٍ على الأقل!

انتهت ساعاتٌ عملي وتوجهتُ عائداً للمنزل لكي أقبل جدتي وأذهب بها للمشفى..

أخذتُ هاتفي واتصلتُ على جدتي لتكون مستعدةً للخروج. أجابتنى سريعاً وقالت إنها ستذهبُ فقط من أجلي، وأخبرتني أيضاً أن طفلتها

البارةُ بها سترافقنا أيضًا.. حنين طفلتها التي لا تتركها لوحدها أبدًا!
لقاءً آخر سيجمُني بها، لقاءً آخر غير متوقعٍ ولكني أجزمُ بأنها هم
من أصرت على القدومِ حينما علمت أن جدتي ستذهب لوحدها معي..
أي لقاءٍ هذا سيكون؟ لقاءً حُبٍّ أم لقاءً عتبٍ على إهمالِ العاشقِ
لمحبوبته.. هل أبتسمُ لها حين أراها؟ ولكن كيف أبتسمُ في وجهٍ أوجعت
بغيابي عنه، كيف أبتسمُ أمام قلبٍ خذلتُه بابتعادي عنه.. لقاءً لم أتمناه
لقاءً دقائق من وجعٍ وخذلان..

وكم كانت تقتلُنِي نظراتُها الحزينة نحوي، تنظرُ لانعكاسِ صور
وجهي على المرايا وحينما تلتقي عيناها بعينيها تلتفتُ وكأنها لا تهتأ
أبدًا لرؤيتي. تلك النظرات الباردة بين حبيبين أقسى من أي عتابٍ وهي
وسيلة تعذيبٍ مؤلمة.

لماذا تغيرنا هكذا، فجأةً تغيرنا أو تغيرتُ أنا فقط. لماذا ما عدتُ ذلك
الرجل الذي يحترقُ شوقًا لرؤيتها، لماذا لم أعد ذلك الرجل الذي أقسمُ أن
لا يُبكي عينيها أبدًا. أهو الخوف من أن لا أنالها يومًا هو ما يجعلني
أولمُ قلبها هكذا؟ يجعلني أقتله ببطءٍ بسكين الإهمال.

وصلنا للمشفى، أربعةٌ كُنا، أنا وجدتي وحنين والعتاب.
توجهتُ لركن الاستقبال وطلبتُ موعدًا عاجلاً مع طبيبةٍ تفد
جدتي، أخبرونا أن ننتظر قليلًا فتوجهتُ لصالة الانتظار بينما جلس
جدتي وحنين في قسم النساء.

انتظرنا حتى صاحت إحدى الممرضات باسم جدتي فدخلنا لغرفة
الطبيبة.

هناك التقينا بطبيبة عربية شكلها يوحي بأنها شابة صغيرة، بدأت
تتحدث مع جدتي وتساءلها عن وجعها وماذا تشعر به، وفي الوقت ذاته
أنا من كان قلبي يتألم برؤية حنين أمامي دون أن أستطيع أن أقدم لها
اعتذاراً على غيابي، على دقائق الانتظار التي سهرتها راجيةً وصالي.

كانت نظراتي نحوها وصدؤها عني مثيرين للشك للحد الذي جعل تلك
الطبيبة العربية تمازحنا وتساءل «هل أنتما مرتبطان ببعضكم
البعض؟» تجمّد كلّ منا في مكانه وزاد نبض قلوبنا، وضعتنا تلك
الطبيبة بسؤالها في موقفٍ لا نحسدُ عليه إلى أن أنقذتنا جدتي
بضحكتها وهي تقول «لا، هؤلاء أحفادي، هذا هتان وهذه حنين وهم
أعزبان» ابتسمت الطبيبة ونظرت نحوي ونحو حنين وكأنها تعلم أن
هناك شيء بيننا نخبئه عن الجميع.

ذهبت جدتي والطبيبة خلف ذلك الستار الأزرق لإجراء بعض
الفحوصات وتبعتهما حنين بعدما لم تستطع أن تجلس أمامي دون أن
تفعل شيئاً.

في تلك اللحظة، تمنيت كثيراً لو كان لك صوتٌ يسمع. تمنيت أ
أسمع عتاباً منك فمهما كانت كلماته قاسية أو موجعة فإنه أهون من
هذا الصمت البارد. يا ترى لو كنت تستطيعين النطق فكيف ستكون رذ

صوتك؟ ياه لو كنت تنطقين فقط لكان صوتك أجمل من غناء فيروز في أول الصباح، لكان صوتك أشبه بتغريد عصفورة ترقص على أغصان الشجر. أه لو كنت تتحدثين فقط لما وصلنا لهذا الحال المؤلم، لما قالت جدتي «أعزبان» عنا!

انتهت فحوصات جدتي وأخبرتنا الطبيبة أنها بخير ولكنها تحتاج للراحة وعدم بذل أي مجهود قد يرهق قلبها. خرجنا سعداء بهذه النتيجة، وقبل أن نخرج من المستشفى جاء صوت الطبيبة مُناديًا..

- أستاذ هتان.. أستاذ هتان..

التفت نحوها وأجبت ندائها..

- نعم، تفضلني..

- نسيْتُ أن أعطيكم وصفة لبعض الأدوية التي تحتاجها جدتكم.. لو سمحت الحقني لأكتبها لك..

لحقت بالطبيبة بينما جلستا جدتي وحنين على المقاعد القريبة من باب الخروج تنتظران عودتي.

وفي غرفة الطبيبة كانت الطبيبة تكتب تلك الوصفة وهي تبتسأ وكأنها خجلى من أمر ما. أخذت ما يقاربُ العشرة دقائق وهي تكتب وتبرّر تأخيرها بأنها لا تريد أن تكتب علاجًا ذا مفعول قوي وأنها تحاول استذكار اسم أحد الأدوية. وقبل أن تعطيني ورقة العلاج قالت وهي تُقلّب عينيها شمالاً ويميناً..

- يا أخ هتان أنا قلقةٌ جداً على وضعِ جدتك..

بصوتٍ متفاجئٍ قلت..

- أَلَمْ تقولي إنها بخيرٍ وتحتاجُ للراحةِ فقط؟!

تلعثمت قليلاً ثم أجابت..

- نعم نعم قلتُ هذا ولكني في نفس الوقت لم أشأ أن أتحدث

بصراحةٍ أمام جدتك فتنزعج هي من حديثي..

- إذاً ماذا؟ أخبريني ما بها..

- هي بخيرٍ لا تقلق، لكن قلبها أصبح ضعيفاً جداً وتحتاجُ الآن

لعنايةٍ كبيرة.. لا تدعوها تبذلُ أي مجهود، يجب أن لا تصعد أي سلال

وأن تبقوا دائماً بقربها لخدمتها..

- سنفعلُ ذلك إن شاء الله..

كان كلام الطيبة متناقضاً بعض الشيء، فمرةً تقول إن جدتي

بخيرٍ، ومرةً تقول أن وضعها غير مطمئن، ثم تعود وتقول أنها بخير

وتحتاجُ للراحةِ فقط، وكأنها بتناقضها هذا تريدُ أن تقول شيئاً تخجلُ مر

البوح به.. وصدق حدسي، بعدما انتهت من كتابة الوصفة سألتني

وخداها مُحمران..

- هل تستطيعُ أن تطمئني غداً بحالِ جدتك؟..

أجبت سؤالها بسؤالٍ آخر..

- هل تقصدين أنكِ تريدين رؤيتها غداً أيضاً؟

- لا.. لا.. لحظة من فضلك..

أخرجت ورقة صغيرة من درجها وكتبت عليها بعض الأرقام ومدتها
بخجلٍ لي..

- تفضل هذا رقمي.. فقط اتصل بي غداً وطمئني على حال جدتك...
باستغرابٍ أخذت الورقة منها ثم ودعتها...

(12)

منذُ اليوم الأول الذي عرفتُك فيه وأنا لم أتجرأ يوماً على أن أقترُب من
امرأةٍ أخرى. ومنذُ اليوم الأول الذي أحببتني فيه وأنا لم أتجرأ على أن
أُحب امرأةً أخرى.

ولكن كل شيءٍ تغيّر الآن..

لا أنا هو أنا، ولا أنتِ هي أنتِ.. ولا هذه الأحلام التي بيننا صار
تكبرُ وتكثرُ، ولا هذا القلبُ صار يهتم.

نعم أخافُ عليكِ، وأحبُّكِ، وأريدُكِ.. ولكن ماذا عساي أن أفعل أما،
قدري. ماذا عساي أن أفعل لأنالكِ وأنا رجلٌ شرقي لا يتزوجُ من يحبه
إلا برضى أمه وتبريكاتٍ عشيرته.

حاولتُ مراراً وتكراراً بأن أكسرُ حاجز الرفض هذا الذي وضعتهُ أمي
بينني وبينكِ، وفي كل محاولةٍ تخيرني أمي بين جنة عينيكِ وتلك الجنا
الموضوعة بأمر الله تحت قدميها.

تقتلني رسائلُ شوقك في كل ليلةٍ، أشعرُ أنني مجرمٌ أمامها. كيف
استطعتُ أن أبكي فتاةً لم تعرف البكاء قبلي؟ وكيف يقوى قلبي على
الصدِّ أمام أجمل أمنيته؟

تكتبين لي أنك وحيدةٌ دوني، وأنتِ لا تعرفين سبباً لغيابي الذي يأك
قلبك وصبرك. تحاولين جذبي من جديدٍ بكلمةٍ «أحبك» أو بـ «أشتق
لك» أو حتى بصورةٍ لك عساها أن تذكرني كيف كنتُ أجنُ حينما أراا
وتسألين ماذا حدث لي.. ما الذي غيّرني وحولني لمجرمٍ في مدينة الحب،
وأنا من كان العادلُ بالحب بين عينيك وخديك. أترأه ملّ صمتي؟ أم أذ
كما توقّعتها مسبقاً نزوةً وستزولُ بعد أن يتذوقني؟

تسألين وأصبحُ أنا الأبكم الذي لا يستطيعُ إجابتك..

أتجاهلُ رسائلِكِ وصوركِ وتنتابُنِي حالةٌ أرقٍ تجعلني أشعرُ أنذ
ظالمٌ لن يهنئَ له النوم أبداً.

يا عيناها ناما، ودعيني أنا للسهر ولللبكاء وللأحزان.. دعيني أموت
شوقاً ولكن لا تدمعان فأموتُ قهراً.

كلما تذكرُكِ شعرتُ بقرصةٍ في قلبي. ذكراك أصبحت داءً ينتشرُ به
جالبةٌ لي أعراض مرض الحب المقتل. حنينٌ وشوقٌ وبكاءٌ يحت
فضاءاتِ عيني.

أتساءلُ دائماً، ماذا لو هربتُ بك؟! ماذا كان سيحدثُ لو اتفقنا على
الهروب معاً، نهربُ ونحن ممسكين بأيدي بعضنا البعض، لا يهم إلى أي



الرجاء شراء الكتاب من المكتبات
دعها للكاتب ولكي لا تضيع مجهوداته سدي!

مع تحيات فريق صفحة كتب
www.facebook.com/the.Boooks

سنهرب، الأهم هو أننا نبقى معاً. لا شيء يفرقنا ولا شيء يبعدنا عن بعضنا. تنامين على صدري كل ليلة، وأقبلُ خديك كل صباح. نرد لمنفى يحتضن هذا الحب ويجمعُ شمل شفتينا. ماذا كان سيضرُّ هذا العالم بأسره لو عانقتك الآن؟ ماذا سيحدثُ لهذا الكون لو قبّلتك الآن؟ ولما لم اختطفك؟! لم رضيتُ أن أعيدك لمنزلك حينما كنتُ منفرداً، في شوارع المدينة، ولما رضيتُ مرةً أخرى بأن أدعك ترحلين بعد أولِ قبا شهدتا جدران غرفة الغسيل؟!

لو أننا هربنا معاً، لما ظللتُ هنا وحدي أستحضرُك من رمارِ ذكراي وأكتبك كروايةٍ أو حكايةٍ للعشاق.

ليتكَ كنتِ ديالاً! تهربين معي بلا مبالاةٍ بما ستخلفينه وراءك من حزن يستوطنُ صدور أهلك.. ليتكَ كنتِ مثلها أنانيةً لا ترضين بأقل م سعادتك.

ولكن ما شأننا نحن وما شأنُ ديالاً بنا؟!

ديالاً الفتاة الهاربة من وطنها لم أكن أعرفها من قبل أن تشتكي جدتي من نبض قلبها، ومن قبل أن أذهب معها لزيارة تلك الطيبة التي كتبت رقم هاتفها لي جاعلةً عقلي يحترق بنواياها. ترددتُ كثيراً بالاتصال بها، وأخبرتُ صديقي خالد عنها فقال لي:

- إن لم تتحدث معها، فسأفعل أنا!!

كان خالد يجزم بأن تلك الطيبة لم تكتب لي رقمها لأنها تريدُ

الاطمئنان على صحة جدتي، كان يقول إنها تسعى لشيءٍ آخر لا يتعلق
بجدتي أبدًا.

لم آخذ كلامه على محمل الجد فهو دائماً يرى النساء بصورة
مشوّهة.

وبعد إلحاح خالد أخذتُ هاتفِي واتصلتُ بها وهو جالس بجانبِ
يسترقُ السمع على حديثنا..

بصوتٍ خافت:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

وبعد بضعة ثواني.. أجابت:

- وعليكم السلام.. من معي؟

- أهلاً بك يا دكتورة.. أنا هتان الذي زارك قبل يومين مع جدتي..

- أهلاً هتان تذكرتك.. كيف هو حالك؟

- بخيرٍ والله الحمد..

- وكيف هو حال جدتك؟ أهـي بخير؟

- نعم بخيرٍ والله الحمد..

- الحمد لله..

- فقط أحببتُ أن أطمئنك عليها كما طلبتِ مني..

- ممتنة لك يا هتان..

وبطريقةٍ أغرب من طريقة طلبها لمحدثتي.. سألتني:

- هل تمانع إن اتصلت بك بعد ساعتين تقريباً؟

- لا أمانع يا دكتورة..

- إذا نتحدث لاحقاً.. مع السلامة.

- في أمان الله..

انتهت المكالمة والتفتُ نحو صديقي خالد وصار يضحك ويسخرُ منه ويؤكد لي ظنه حينما قال إنها تسعى لأمرٍ آخر..

ومع ثاني اتصالٍ، كان الأمرُ واضحاً وليس بحاجةٍ لتفسيرٍ آخر، غير أن تلك الطيبة تحاول أن تجد صديقاً تتحدثُ معه. رُبما لأنها جاءت من بلادٍ أخرى تصادقُ فيها المرأة الرجل ويخرجان معاً في نزهةٍ ويتناولوا العشاء معاً دون أن يخافا من أعين الناس التي تشكُ بصليتهما ببعضهما، ولم يخطر ببالها أنها تعيشُ الآن في بيئةٍ محافظة قد تعتب أي تواصل بين الأنثى والرجل جريمةً يعاقب عليها الشرع والقانون.

حديثُها ونبرةُ صوتها وتلك البحة الجميلة فيه جعلتني أصغي لها كطفلٍ مستمتع بصوتٍ هديلِ الحمام. تلقي بكلماتٍ حلوة الرنين ف أذني، كلماتٍ مترفة الغنج اكتسبتها من لهجة وطنها الأخضر.

كانت كقطعةٍ أليفةٍ خائفة تبحثُ عمّن يداعبُ فروها حتى تنام مطمئنة بأن هناك من يهتمُ بها. أخبرتني عن عملها كطبيبةٍ متخصصةٍ في أمراض القلب، قالت «كنتُ أحب عملي جداً، أحب اللحظة التي أسمع

فيها نبضاتِ قلوب المرضى، فأطمئنهم أحياناً بأن قلوبهم لا زالت قوياً وقادرةً على تحملِ أوجاعِ الحياة، وأوجعهم أحياناً أخرى حينما أقول لهم بأن قلوبهم تعبٌ من هذه الحياة.. كنتُ أحب هذا العمل حينما لم أكن بحاجةٍ لمن يتحسس قلبي ويخبرني عن حاله، ولكن إلى متى وأنا أسمع رنين قلوب الغير ولا أحد هنا يستطيعُ سماع هذا الرنين الحزين الذي أشعر به في قلبي، أرهقتني هذه الحياة حتى ذبل وجهي، أقفُ أمام مرآتي ولا أرى نفسي، شعري بدأ يتساقط كأوراق شجرةٍ تقفُ وحيدةً أمام رياح الخريف، وحيدةً أنا، أشعرُ أنني «أنا» أصبحت بلا «أنا»..

أردتُ أن أخفف عليها قليلاً.. فقلتُ لها:

- يا دكتورة.. إن..

قاطعتي قائلةً:

- لا تنادينني بقلبي.. ألا تريدُ أن تكون صديقي؟!

بخجلٍ أجبتها:

- نعم.. لنكن أصدقاء..

- إذا نادني باسمي.. نادني بـ «ديالا» فقط.

- حسناً يا... ديالا.. إن الحياة ظالمةٌ أحياناً، لا تعطينا بمقدار ما

نعطيها.. لستِ وحدك من يشعرُ بالتيه، ولستِ وحدك في دائِ

الاهتمام.. ولكنها الحياة، حياةٌ واحدة، فإما أن نتجاهل قسوتها لنسعد،

وإما أن نلهث وراءها كالكلابِ حتى تفقدنا...

- أتشعرُ بالوحدةِ يا هتان؟ أتشعرُ بها وأنت بين أهلك وصحبك؟..

- الوحدة ليست بغيابِ البشر من حولنا.. الوحدة أن تغيب أنفسنا
عنا..

- ولمَ تشعرُ بغيابك عن نفسك؟

- نفسي تمردت عليَّ وانشقت عني، وراحت تركض وراء من منع
القدرُ من الحصول عليها..

- تُحب؟

- رُبما..

- ما يمنعك عنها؟

- الأمر معقد..

- لا يوجد أمرٌ معقد.. ولكن يوجد أمر لا يصلح للبوح.. أتفهم صمتاً
يا هتان، وأفهم حشرة حنجرتك حين تريد البوح بهذا الشيء.. ومن منا
لا يملك أسراراً؟

- وأي سرٍ تخفيه أنتِ يا ديا؟

- سري أقبحُ من أن يستمع إليه أي صديق، دعه في قلبي ولنفسي
فقط..

- نحن أنانيون حتى في إطلاقِ أوجاعنا..

قهقهت وقالت:

- رُبما..

وقبل أن تتعانق عقارب الساعة عند الثانية عشر صباحًا ودعتني بلطفٍ ووعدتني أن تبوح بسرّها لي عندما تقدّر على تحمّل ألم خروج من صدرها، وكأنّها بوعدّها ذلك تخبرني أن هناك أيامًا قادمة ستجمع صوتي بصوتها.

(13)

When I told you I do not love you, it was the blackest lie in my
!life

* * *

(لديك رسالة بريد إلكتروني جديدة)

«عزيزي هتان.. أكرهك!

نعم أكرهك بقدر ما أحبيتك، أكره غيابك هذا.. بما أخطأت لتعاقبني هكذا ولتعذب قلبي الذي يتلهف لوصلك.. أشعر بالذنب لأنني أحبيتك ولأنني سمحت لرجل أن يؤلم قلبي.. أشعر بالأسى على نفسي، نفسي التي تنتظرك صباح مساء، وتنتظر وجهك ليقبل عليها كشمسٍ تتوقد..

عشتني في حيرة مؤلمة، جعلتني أشكو حزني لغيرك، وجعلت غيرك يربّت على كفي.. أيها العاشق الذي جُنّ به قلبي، ماذا حدث لك؟ م الذي غيرك وأبعدك كقيمة أراها ولا أستطيع لمسها.. ألا تذكر وعدك؟ بأنك لن تدعني يومًا للحزن؟ ألا تذكر كم من مرة أقسمت أن تسعدني؟..

أكنت تلهو بقلبي حين وعدتني؟ أم كنت تكذبُ لتلهو بقلبي؟.. لا يهم ماذا كنت تفعل، ولكن أنظر لما تفعله الآن بي..

أريدك بمقدار هذا الألم الذي أشعر به عندما أقول أريدك ولا تأتي أشتريك وأنا الأنثى العذراء التي نذرت نفسها لك ولشفتيك..

ما أقواك وما أقساك.. أتتركني في خلوةٍ مع طيفك؟ أتدعني فم حيرةٍ مع ظلك؟..

أتعبني البكاء حتى صار دمعى والماءُ سواء.. أتعبني الظلام.. الظلام الذي صرْتُ أختبئ فيه لكي لا تقضحني هالاتُ السوادِ الداكن حول عيني..

أترضى؟ أترضى بأن تذبل عيناى هكذا كوردةٍ وحيدةٍ في حديقتك. وحدك من يقدرُ على أن يسقيها لتعود مزهرةً نديةً تسرُّ ناظريك؟.. كُنْتُ حلمي الوحيد، وأخشى أن تبقى حلماً..

كم مرةً عليَّ أن أخبرك بأنني أشتاقُ لك.. كم مرةً عليَّ أن أبكم لأطفئ نار شوقي بالدمع.. كم مرةً علي يا حبيبي أن أخبرك أنك حبيبى لتعود إلي...

ولأول مرةٍ أكرهُ صمتي.. أكرهُ ثغري الأبكم.. أكرهُ حنجرتي التي لا تستطيعُ الصراخ باسمك الآن..

أنا هنا على مقعدِ الانتظار أنتظرك.. أنا هنا في دائرةٍ ذات ظلالٍ مرعبة.. لا أدري أين باب الخروج، ولا أدري أين شعاعُ النور.. أنا هنا

في دائرة غيابك أموت..

دونك أنا في حالة انهيار.. زلزال الشوق دمّر كبريائي.. جعله حطاماً
ورماداً.. وجئتُك الآن بطلب اللجوء.. إلى مدينتي.. إلى قلبك..
مفلسة أنا منك.. وحبّي لك دينٌ في رقبتك..

أرجوك يا حبيبي، عُد لي وردٌ لي ديني..

سأنتظرك.. وسأكلُ أناملِي في كل دقيقةٍ لا تقترب فيها مني.
أناملِي المطلية بالأحمر.. تلك التي تحبّ لونها كثيراً.. ستتشوه إن لم
تأتِ.. وسأجعلُ المقص بجانبِي.. أعدك أن أقص شعري الطويل الذي
داعبته بيديك.. وألقي به في سلة القمامة.. لكي لا أذكرك في كل مر
أهذبه ولا أجد يديك لتبعثره من جديد..

وإن لم أفعل كل هذا، سيكون من الظلم أن أتألق.. أنا ألبس القصير
دون أن أجد غزلاً منك، وأن أضع الأحمر على شفتي ولا أنام وهو لا زال
عليها..

أكرهك يا هتان لأنك جعلتني أكتب لك هذه الرسالة، وسأكرهك حين
تقرأها ولا تأتي راکضاً محطماً لباب عزلتي..
لا زلتُ أحبك..

* ملاحظة: هناك أمرٌ هامٌ قد حدث.. أرجوك لا تجعلني أياس منك
لا تجعلني أبحث عن طريقٍ لنسيانك..
حنينك..».

لستُ أعرف ماذا يجب أن أكتب لك.. كلما كتبت عذراً وجدته أقبح مر
بياض الرسالة.. كلما أردتُ أن أكتب لك شوقي، وجدته أقسى مر
صمتي.. أخافُ من كل كلمةٍ قد أكتبها هنا وتعلقك أكثر بي.. تعلقُ
بشباكي كحلةٍ يائسةٍ في شباك عنكبوتٍ لئيم..

وأخافُ أن لا أكتب لك وتشعرين أن هذا القلب قد مات، وأن هذ
العشق قد ضاع..

ليتكَ تكرهيني حقاً.. ويا ليتني لا أسمع صدى «أحبك» في كلِّ مرّةٍ
تكتبتي فيها «أكرهك»..

أحبُّك.. أحبُّك يا قدرِي، ولا مفر لي من القدر.. وفراقك مصيبةٌ، وأأ
والمصائبُ في علاقةٍ وطيدةٍ..

نكأتِ برسالتك جرحاً غائراً، وكل حرفٍ فيها بعث أشواقِي من جدي
من مرقدِها..

تتجمد أرجلي في كلِّ مرّةٍ أعبُر أمام منزلك، وأظلُّ هناك تحت نافذتا
وحيداً أسامرُ قلبي وطيفك الذي ينظرُ لي من خلف زجاجها.. وكم رغب
بأن أرميها بحجارةٍ توقظك من سباتك، أو أن أتسلق لها كلصٍ سيسر
لؤلؤةً من محاربتها..

ما مللتك يوماً، وما نسيْتُك ساعةً.. أنتِ معي في كلِّ الأشياءِ، أذ
بقربي أراك تسكين الشاي لي، تصففين ملابسي، ترتبين مفارشِي
تشاركيني السفر، وتحتلين وجه البشر..

أذكرُك في كل ليلةٍ ماطرة.. يا تُرى أتحبين المطر؟ أترقصين علم
إيقاعِ هطولهِ، أم تخافين من رعودهِ ... أذكرُك في كل صباح.. يا تُرى
ألا زلتِ نائمةً؟ أكان نومك طويلاً أم قاطعه صوتُ العصافير وشعاعِ
الشمس؟.. أذكرُك في كل مساءٍ.. يا تُرى من سيحظى برؤيتك هذ
الليلة؟ من سيرى قمر السماء جالساً على الكنبه؟..

أعترفُ لكِ بأنني أحضن طيفك في كل ليلةٍ.. أراه ممتدداً على
فراشي، يبتسم ويغمرُ لي.. يُحدثُني عنكِ ويخبرُني كم تشتاقين لي.
وحدهُ من يفهمُني ويعلمُ سر غيابي.. يواسيني حينما أبكي.. يشتمُنني
حينما أصدُ عنه.. ويهربُ كلما حاولت ضمه ويصرخُ وهو هاربٌ مني « ا
تضمَّنني.. أنا طيفٌ.. أنا رسولٌ.. فاذهب واحضن من أرسلني لك »..

أقفُ على عتبة الجنون كلما ذكرُتك.. فيتشاجرُ قلبي وعقلي
يتبادلان الشتائم ويقذفان بعضهما البعض.. يختلفان في الآراء.. فالأول
يريدُك ولا يبالي بأي عقياتٍ قد تفرّقنا وتكسرنا لنصفين.. والثاني يريدُ
ويحسبُ ألف حسابٍ لرغبته..

قرأتُ رسالتك..

وبحزنٍ أرسلتها إلى سلة المهملات..

(14)

في بداية كل قصة حب، يرى كل عاشقٍ حبيبته بصورةٍ كاملةٍ لا
نقص فيها. يرفعها إلى أقصى درجات الكمال والجمال. يوهمها أنه
خلقت من نورٍ كما تخلقُ الملائكةُ، وأن الطبيعة خلقت من جمالها.

يهيمُ العاشقُ بمعشوقته ويبحرُ بها في بحر الحب حتى تنام مطمئنًا
أنه لن ولن يرى غيرها أبدًا..

ولكن سرعان ما تزول تلك الغشاوة مع أول مشكلةٍ بينهما، أو مع أول
فتاةٍ أخرى تداعبُ وجدانه..

هكذا كنتُ أنا، كأني عاشقٌ آخر، لا شيء يميزني عن غيري، أحد
بصدقٍ ولكن صدقي يكذبُ أحيانًا..

وكم كنتُ صادقًا حينما غنت ديا لا فشعرتُ بصوتها يصرخُ داخلي
يُقظني من غفلتي، ويحركُ قلبي من جديدٍ، ويركلُ حنين المسكينة إلى
آخر الأزقة في قلبي، ويجعلُ لها شريكةً أخرى في صدري..

«بيني وبينك يا حلو شو صار في حكايات

ما في كلام يساعها منقولها لفتات

كنا نراسل بالومي ونقول شرح يطول

ولما اجتمعنا لحالنا نسينا شو بدنا نقول»

صوتها العذب أربكني وعصف بشراعٍ زورقي، جعلني أتجه نحو
الشمال، نحوها بلا إرادةٍ وكأنني أفعى ترقصُ على نغم مزمارٍ ناسد
هيبتها غير مبالية بمن يضحكُ على رقصها وسذاجتها..

عَلَّمْتَنِي دِيالَ الْكَثِيرِ وَالْكَثِيرِ .. عَلَّمْتَنِي أَنَّنِي رَجُلٌ، وَلَأَنَّنِي رَجُلٌ فَازَ
الْخِيَانَةَ سَتَلْتَصِقُ بِي بِشَكْلِ أَوْ بَأْخَرِ.. عَلَّمْتَنِي أَنَّ الرِّجَالَ لَعِبَةٌ فَهِيَ
أَيَادِي الْفَاتِنَاتِ، وَمَهْمَا كَانَ قَوِيًّا وَصَادِقًا حُبُّهُمْ لِحُبُوبَاتِهِمْ فَإِنَّهُمْ لَا
يَخْلُونَ مِنْ نَقَاطِ الضَّعْفِ.. عَلَّمْتَنِي أَنَّ الْحُبَّ ضَيْفٌ لَطِيفٌ يَسْتَقَرُّ فِي
أَجْسَادِنَا مَتَى مَا أَكْرَمْنَاهُ، وَيَرْحَلُ مَتَى مَا بَدَأْنَا نَشْتَكِي مِنْهُ.. عَلَّمْتَنِي
أَنَّ الْحُبَّ دَوْرَةٌ مِنْ دَوَرَاتِ الطَّبِيعَةِ فِيهِ فُصُولٌ أَرْبَعَةٌ.. فَصَلِ الْعِشَاءَ
الْمُمْطِرَ، وَفَصَلِ الْعِنَاقَ الْمَزْهَرَ، وَفَصَلِ الْحَنِينَ الْبَارِدَ وَفَصَلِ شِتَاءَ النِّسْيَا
الْقَارِسِ.. وَعَلَّمْتَنِي مَعْنَى أَنَّ أَنْسَى حُبًّا بِحَبِّ آخَرِ.. أَنَّ أَسْتَبْدِلَ الْحُبَّ
الَّذِي يَسْتَعْصِي عَلَيَّ نِيلُهُ بِجَسَدٍ آخَرَ يَغْدُقُنِي بِالْحَنَانِ وَالْإِهْتِمَامِ، لَا
يُرِيدُ شَيْئًا مِنِّي غَيْرَ قَبْلَةٍ فِي الصَّبَاحِ وَحُضْنٍ فِي اللَّيْلِ، لَا يَرْبِطُنِي بِهِ
أُمْنِيَاتٌ وَوَعْدٌ أَخَافُ مِنْهَا وَأَخَافُ عَلَيْهَا غَدَرَ الزَّمَانِ وَالْقَدَرِ.. وَعَلَّمْتَنِي
أَنَّهَا وَمَهْمَا كَانَتْ قَرِيبَةً مِنِّي إِلَّا أَنَّهَا مَرَحَلَةٌ نَقَاهَةٌ وَاسْتِجْمَامٌ
وَسَتْنَتَهِي..

وَنَسِيتُ أَنَّ فِي الْحُبِّ لَا تَوْجُدُ مَرَحَلَةً نَقَاهَةً وَاسْتِجْمَامًا.. وَإِنْ وَجَدْتَ
فِيهَا فِي الْغَالِبِ أَقْرَبُ لِمَعْنَى الْخِيَانَةِ...

صَارَحْتَنِي مَرَّةً بِقَوْلِهَا أَنَّهَا امْرَأَةٌ نَصَفٌ مَتَزُوجَةٌ.. سَأَلْتُهَا وَكَيْفَ
يَحْدُثُ هَذَا؟ أَجَابَتْنِي: يَحْدُثُ أَنَّ يَكُونُ هُنَاكَ امْرَأَةٌ نَصُ مَتَزُوجَةٌ عِنْدَهُ
تَتَزَوَّجُ نَصَفَ زَوْجٍ.. زَوْجٌ لَا يُرِيدُ مِنْهَا إِلَّا جَسَدَهَا، يُرِيدُهُ أَنْ يَكُونَ
مَتَأَهَبًا لَهُ مَتَى مَا اعْتَلَتْ شَهْوَتُهُ بَعْدَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ، يُرِيدُهَا أَنْ تَسْقِيَهُ

من مائها ومن خمرها ويظنُّ أنه يكافئها بأمواله وهداياها، وينسى أن
أجمل هديةٍ قد تقدم للمرأة هي الاهتمام..

نصبتُ ظهري على السرير بعدما كنتُ مستلقياً وسألتُها..
- زواجٌ مسيارٌ؟..

- بل هو أشد من المسيار.. زواجٌ ذو منفعةٍ متبادلة.. أنا أداعبُ ثغري
متى ما جفَّ، وهو يأمُن لي عيشةً طيبة..

- ولما تقبلين على نفسكِ هذه الإهانةِ المغلفة بشرائط حمراء؟
- «إلي أمر منه» يا حبيبي...

خجلتُ من اللقب الذي أهدتني إياه على غفلةٍ مني، وافتعلتُ الصم
ورحتُ أطلبُها بتوضيحٍ لقصتها، فما أشعرُ به الآن تجاهها هو نبضٌ
يحتملُ أن يشاركه أحد بها..

حاولتُ أن أجعلها تتحدث، وحاولت أن تمتنع عن الحديث.. أخبرتها
أن لا شيء في علاقتنا سيتغير مهما كان سيئاً ماضيها، وأخبرتني أن
ماضيها نسته في صندوقٍ أسود ولا تعلم أين وضعت مفتاحه..

ولكنها سرعان ما وجدت مفتاح ذلك الصندوق عندما قلتُ لها.. «هيا
حبيبتي.. أخبريني»..

«حبيبي» و«حبيبتي» كلمتان سحريتان تفتحان لك أبواب أي
مغارةٍ تقفلُ أبوابها أمامك.. كلمتان ذات مفعولٍ يشبهُ عبارة «افتح
سمسم!..».

باحث ديالاً بسرّها، بتفاصيل ليلة هروبها من منزلها وأهلها وأصدقائها ووطنها.. كيف تسالت من منزلها، كيف ودّعت سريرها، كيف كان قلبها قاسياً حينما كتبت سطرًا واحدًا في رسالتها، رسالة خالية من عبارات الوداع.. وكيف كانت تنظر لجبال وطنها الخضراء من نافذة الطائرة، وكم من دموعٍ حرقت خدها الأبيض كالنور في تلك اللحظة الحزينة.. قالت إنها أرادت الهرب، أرادت أن تعيش كما تعيش هي الآن، وظنت أنها لن تندم أبدًا، وحسبت أنها ستكون سعيدةً بهذه الغربة وهذه المسافة التي تبعدّها عن فقر أهلها.. ولكن هناك نبضًا ما في قلبها لا زال يتحرك كلما رأت في التلفاز مشاهد من وطنها، وكلما تذكرت وجه أمها وملابس أبيها المتسخة وصورة أخيها النائمة في محفظتها.. ورغم كل ما حدث، إلا أنها تعترف أنها لم تكره هذا الرجل الذي هربت معه، فقد أغدقها بأمواله ومهدّ طريق علمٍ تعلم أنها لن تجده في بلدها مهما صبرت وتعبت.. قضت حياتها في ترفٍ لم تعرفه من قبل، تنتقل بين القارات كطيرٍ حرٍ لا تطوّقه أية حدودٍ، وتشتّت وحدتها بالانغماس في أوراق الطب.. كانت لا تكتفي بالنوم على وسائدٍ من حرير، بل أرادت أن تصنع فرقًا واضحًا في حياتها لا يجعلها تندم على الهروب من عشها.. قضت خمس عشر سنة تتعلم وتدرس حتى ارتدت عباءة التخرّج السوداء.. ارتدتها ولكن لم يكن هناك أحدٌ يصفقُ لها حينما اعتلت منصة التتويج، ولم يرها أحدًا عليها أبدًا..



الرجاء شراء الكتاب من المكتبات
دعها للكاتب ولكي لا تضيع مجهوداته سدي!

مع تحيات فريق صفحة كتب
www.facebook.com/the.Boooks

لم تكن هي أولى زوجاتِ بعليها، ولم تكن الأخيرة.. هي كانت الزوجة الحرة الطليقة، لا حقوق زوجية بينهما إلا في أمرين.. النفقة التي تضمن بقائها في قربه.. والمعاشرة التي تجب أن تكون بموعدٍ مسبقٍ.. لا يعيشان مع بعضهما البعض، فهو يعيشُ في قصرٍ كبيرٍ مع زوج أخرى لا يسخرُ منه الناس حينما يرونه معها ويكون ذا هوى أمامهم.. وهي تعيشُ في شقةٍ صغيرةٍ أجملُ ما فيها غرفة نومها التي اها بتزيينها زوجها أكثر من أي غرفةٍ أخرى في تلك الشقة..

كانت ديا لا تبكي بحرقه وهي تبوح بقصتها.. شعرتُ وقتها ببرودة تآكلُ أصابعي، وبالكلامِ يموت على ثغري قبل أن يخرج مواسيًا لها.. دموعها جعلت صوتها دافئًا نقيًا يتحدثُ بصدقٍ، فالبكاء والحزن لا ينجسان في الكذب..

(15)

أحببتُ ديا لا، وأحببت وجودها..

اقتربنا من بعضنا كثيرًا .. أصبحنا نتبادلُ الرسائل في الصباح ونتملُ بالحكي في المساء .. نتحدثُ طويلًا ولا شيء يقطعنا .. إلا الساعة الثانية عشر في منتصف الليل كانت تألم قلبي أحيانًا .. ففيها تختفي ديا لا وكأنها سندريلا ومنتصف الليل عدوها .. لا تقول إلى أين ستذهب ومتى ستعود، وفي كل مرةٍ تحاول البحث عن عذرٍ آخر غير

إرهاق العمل .. ولكنني كنتُ أعلم أنها تذهب له .. أو يأتي لها هو.. لا يهم أيهما يقترب من الآخر ما دام أنهما سيجتمعان وسأظل هنا وحدي أفكرُ بما سيفعلانه حتى ينتكش شعُرُ رأسي غيرةً..

بدأت الغيرة تظهرُ على نبرة صوتي وعتابي لها على تركها لي وحيداً تحت نور القمر.. تضحكُ على غيرتي تجاهها وعلى هذا الانجذاب المدهش نحوها.. وتصبر قلبي بقولها «لا تحزن يا حبيبي.. سأعوّضك عن هذا الغياب بعناقٍ يطوّقك حتى تنام»..

وأوفت ديالاً بوعدها حينما اختارت بيروت مكاناً لعناقنا.. تواعدنا على الالتقاء هناك، تواعدنا على أن نهرب معاً وكأنها لا تعرف إلا طريق الهروب لتنجو من حزن هذه الحياة..

التقينا في مطار الرحيل كالغرباء، وما إن وصلنا إلى بوابة الطائرة حتى تشابكت أيدينا وصارت أكتافنا وسائدًا ونظراتنا غوايةً..

وصلنا إلى بيروت ومكثنا في شقةٍ صغيرةٍ في أحد الفنادق المطلّة على زرقاء مياه البحر حيث تحلّق النوارسُ قريباً من شرفتها.. بيروت المدينة الفاتنة احتضنتنا واحتضنت جنوننا وأشعلتنا كعودين كبريتٍ.. لا بيروت ولا بحرُها ولا نوارسُها منعوني من قضم شفاه ديالاً.. ولم تمنع ديالاً حتى!

تلطخنا بطين الرذيلة وخضنا معاً معارك شرسةً في ميدان السرير.. كُنّا مراهقين في حبنا، نسعى لما يروي عطش أجسادنا دون أن نبالي

بالعواقبِ الوخيمةِ التي قد يحملُها لنا القدر.. كنا مراهقين فعلاً في هذ
الحب.. وبعد ست ليالي فقط انطفأت شموع الشهوة التي كانت تحرقُ
صدورنا بشمعها وانقلب حالنا إلى فتورٍ وبرودٍ جافٍ يمزقُ شفاها
بالصمت..

كان حبنا أضحوكةً، كان عبثاً وشبقاً ورعونةً.. ولأن ما يأتي بسهولةٍ
يرحل بسهولةٍ.. رحلتُ أنا عن شفاهِ ديالاً بعد القبلَةِ العاشرة.. بعد المئة!
كان رحيلي متوقعاً، لم تضجر هي منه كثيراً، فقط أربكها سرعةُ
حلوله وطريقةُ وداعنا.. للمتُ ملابسٍ المتكدسة والمتشابكة بين ملابسها
رصاصتها بإهمالٍ في حقيبتتي وكأنني أعاقبها على لهوها وعلى رائحةِ
عطر ديال الذي يعانقها..

ارتديتُ معطفي وحملتُ حقيبتتي وغادرتُ بيروت بينما كانت ديا
تستحم وفي استحمامها دموعٌ قهرٍ على حالها اختفت مع قطراتِ الماءِ
التي تطهرُ جسدها من ذنبي..

لم نتعانق لمرةٍ أخيرة، ولم نصبر أنفسنا بكلماتِ الوداع.. كان حبنا
عطلةً وانتهت بعد مللٍ وأسف..

(16)

جاءت تحملُ الورد وتترنح؛
وردٌ يحملُ ورداً..

تتباهى بين الإناث وتتفنج؛
أنثى أجمل من أي أنثى..
تغمزُ بجفن عينا وتنفن؛
بإسقاط ذكور رجلاً رجلاً..
تنتقمُ بجمال خدّها وتثأر؛
من رجلٍ أهرقها هجرًا وبُعدًا
غاويةً الحسن والجمال تتعذب؛
من دقات قلبٍ تدقُّ ألماً؛
وتذرفُ الدموع دماً ونبضاً..
مُترفةً النعومة وأميرةً الطفولة تتحسر
على قلبٍ يُحبه حُباً جمّاً..
على خائنٍ رحل وأدبر..

* * *

عدتُ إلى الرياض منكسراً وخائباً، عدتُ بعد صحوتي من سكر
الحب المزيف.. عدتُ بزيغٍ حارٍ في ذاكرتي يجعلُ رأسي كرةً ثقيل
الحمل على جسدي..

الخيانة صفةٌ لا تغادر كل عاشقٍ إلا من رحم الله.. ولم يرحمني الله
ويجنّبني إياها..

الخيانةُ كالدماءِ الملوثةِ، تتغلغلُ في أجسادنا، تغيّرُ من تركيبتنا
وندفعُ ثمنها بصراخِ الضميرِ في داخلنا..

ظننتُ أنني سأنسى حنين مع أولِ قبلةٍ تجمعُنِي بديلاً، ظننتُ أنَّ
الحب يُنسى بالقبلات وبعرقِ الأجساد.. ظننتُ أنها سترحلُ من قلبي
ولن يتبقى أثرٌ لها في شوارعِهِ.. ظننتُ وظننتُ وظننتُ.. حتى خاب ظنه
حينما صرخ قلبي باسم حنين، معلناً عن اشتياقه وحسرتِهِ دونها..

وصلتُ إلى منزلي في الرياض منهكاً من صراخِ قلبي ومن صدادِ
ذاكرتي، ألقى السلام وألفَ كذبةً على عائلتي عندما سألوا بما صنع
هناك في بيروت، ثم استأذنتهم بالصعودِ لغرفتي لأريح جسدي المتضرر
من قبلاتِ ديار..

وقبل أن تنام عيني كتبتُ رسالةً لحنين..

«يا من اشتقتُ لها كثيراً.. يا من يفتقدُها قلبي كثيراً.. لك أسفي يا
حنيني على كل ليالي الغيابِ، على ندائك الذي لم تسمعه أذناي و
قلبي...»

سامحيني.. سامحيني أيُّها الطيبةُ واقتربي فإن في صدري جرحاً
لن يبرئ إلا بقربكِ.. وعلى خدي دمعٌ لن يجف إلا بمندليك..

أعلم أنني ألتك بما يكفي لتعودي، وأعلم أنني أبكيك بما يكفي

لتشتاقي لي.. وأعلم أنك لا تعلمين عن سبب هجراني وصدي المميت.
ولكن الدنيا يا دنيائي تأمرت علينا ولم تشأ أن تجمع شملنا..
أيتها البريئة كطفلةٍ عمرها دقيقة.. لا تبكي.. لا تحزني.. أنا هنا الآن
أنتظرُك.. وسأنتظرُك إلى أن أنام وحيداً في غرفةٍ صغيرةٍ في باط
الأرض..
أحبُّك..
هتان..

ثم راحت عيناى في سُبَاتٍ كم تمنيتُ ألا أفيق بعده..

أنحُ من نجني على أنفسنا بالشتاتِ ثم نلقي باللومِ على غيرنا في
محاولةٍ لتخفيفِ الألمِ على قلوبنا؟ أنحُ من نهكُ أنفسنا بالحزنِ والبك
ثم نقولُ أنه لولا فلانٍ لما حزناً ولا بكينا؟ أنحُ من ترهقُ قلوبنا بالد
ونجعلها تتكيفُ على صباحاته ولياليه ثم نهلعُ ونضجرُ من كلِ صبا
ومساءٍ لا نرى فيه من نحب؟ أنحُ العشاقُ من نخون؟ أم أن هنا
أشخاصاً آخرين يحركون أجسادنا وقلوبنا في دقائق الخيانة؟ كيف
للعاشق أن يخون ثم يعود طاهراً؟ كيف للعاشق أن يحب.. ولا يخون؟
قساةٌ نحن معشر الرجال.. نقسو على أرواحنا ونعلقُ قلوبنا على
حبالٍ كثيرةٍ وكأننا نعدمها مرات عديدة.. قساةٌ لا نرحمُ صدورنا ونحميها
من كيِّ جمرِ الفراقِ.. نحبُ ونعشقُ وما أن يبدو هذا الحب صعباً حتـ

نغير اتجاهات بوصلة الحب لحبٍ آخر أسهل..

نسيتُ نفسي.. نسيتُ إلى أي القلوب أنا أنتمي عندما رحْتُ أعبُر ف
واحَاتِ النساءِ وأكلُ من ثمراتِ نخلاتهنَّ وأشربُ من مياهِ شفافٍ
متناسياً أنني عابِرٌ ومهما طالت المسافاتُ بيني وبين وطني سأعود لا
يوماً غيرَ مبالٍ بما يبعدُنِي عنه..

ونسيتُ أنكِ وطني يا حنين.. أنكِ انتمائي والأرضُ التي تتفتحُ
تربتها أزهارٍ بطهرٍ، وأنتِ ومهما ابتعدتُ عنكِ ستبقى دائماً في قلبي..
ولكني منذُ أن خلقتُ وأنا آتي متأخراً جداً.. صبر والدي سبعة سنين
لآتي.. وانتظروا تسعة أشهرٍ لأخرج من بطنِ أمي، ولو أنها لم تسأم من
حملي لبقيتُ هناك لتسعة أشهرٍ أخرى.. وكنتُ الأخير في دفعتي حين
أنهيتُ المرحلةَ الثانوية، وفهمتُ متأخراً أنَّ لا شيء يبقى للدوام.. وكنتُ
أيضاً الأخير الذي علم بموعد زواجكِ!

قالتها جدتي وهي تخبرُنِي عما حدث في غيابي.. قالتها وهي تطيرُ
في سماءِ الفرح.. «أخيراً.. أخيراً يا هتان، جاء النصيبُ المنتظر لابننا
عمك.. حنين!».. قالتها وهي تبشِّرُنِي بموعدِ هلاكي.. قالتها وهي تترقد
إشراقة سني من وراء شفاهي.. قالتها ولم تدري أنها في تلك اللحظة
قتلت ابنها ببشارةٍ مُرَّة..

هكذا إذن.. هكذا أعلنتِ الرحيل وطويتِ صحف الحب كلها.. هكذا
اخترتِ طريقة ردِّ ثأركِ من غيابي وردِّ دين حبكِ من وجداني..

عيناى التى دهشتا من لون بؤرتى عىنىك لم تستطىعا أن تصدق
هذا القول.. لم تبكىا ولم تذرفا دموعاً.. ولكنها كادتأ تخرجان من
مكانهما من شدة دهشتهما!

وىداى التى تحسست خدىك وعرفتأ معنى كىف هو ملمس الحر؛
صارتأ جافةً خطوطها وتساقطت أظافرها كأوراق الخرىف متحسرةً على
رحىلك..

صارت كل ذكرى جمعتنى بك تعصف كالرىح على مركب فكرى
وكأنها لحظة الموت أسترجع فىها أجمل لحظات حىاتى، أتنفس ببط
الهواء بارد فى صدرى.. أطرافى لا تتحرك، شلل الرحىل أصابنى..

«سترحلىن هكذا؟ صبراً أىتها الأئشى الماكرة.. صبراً أىتها الأئشى
الحزىنة.. لا ترحلى عنى.. لا تتركىنى هنا وحدى.. ورب الحب والحز
والبكاء، وربى وربك لا حىاة لى دونك.. أخطأت أنا.. وعقابك أقسى م
خطئى.. ستذهبىن هكذا؟ وتظنىن أنى سادعك تذهبىن هكذا؟ أىتها
الشقىة لا تشقىنى ولا تدمرىنى.. أنا الذى أعود لسن الطفولة بىر
ذراعىك، كىف تقدرىن على هجران طفلك؟! أنا الذى أقول كلاماً لا يقوى
على نطقه ثغرُك، كىف تقدرىن على نسىان صوتك؟!

أهـ یا حنىن.. أهـ یا حبىبتى..

أتقتلىنى بصلك شرعىً بىىح قلبك لرجل غىرى على سنة الله ورسوله
أتقتلىنى باسم الدىن وتحرمىن حبى لك وترحلىن للطهارة وأبقى أنا هنا

أَلطَّخُ وجهي بالطين أُلْمًا على رحليكَ؟ أخبريني ماذا عساي أن أفعل
لتعودي لرشدك.. أخبريني ماذا عساي أن أفعل لتعودي عن قرار
وتركضين باكيةً لصدري.. أي قصائدُ الرجاء ستجعلُك تعودين لي.. أي
كلماتِ الحبِّ وألحانِ الحزنِ أعزفُها لتعودي..

أرجوكِ عودي.. أنا في حاجةٍ كبيرةٍ إليك.. والاحتياجُ
يا محبوبتي ذلٌّ..

عاجزٌ أنا عن كتابةِ الحزنِ الذي يحتلُّ عينيَّ وصدري.. عاجزٌ أنا عن
تصديقِ كذبةِ رحيلك.. عاجزٌ عن كلِّ شأنٍ آخرٍ غيرِ شأنك.. أهنأك صد
أقبحُ من العجزِ؟

يا من أبتدأ عمري معها.. يا من أنجبتني من رحمِ عينيها.. رفقا
بصاحبك.. رفقا بعزيرِ قومٍ.. ذلٌّ!

أقف الآن على حدودك وحيداً.. أرجوكِ افتحي بوابةَ قلبك ودعيني
أعودُ لوطني وعرشي الذي سيسلبُ برضاكَ مني..

هتان..»

وانتظرتُ جواباً منك، انتظرتُهُ بشغفٍ مثلاً وانتظرتُ جوابَ الحبِّ ما
في أولِ ليلةٍ جمعتنا على مائدةِ العشق.. كنتُ مشتتاً لا أدري ماذا أفعل
بحالي.. أبكيك أم أنتظرُ على الانتظارِ يقضى برجوعك.. لا ليس رجوعاً.
أنتِ لم تغادري قلبي للحظةٍ لترجعِي.. بل هو وصلٌ يحيي قلبي الواقف
على هاويةِ اللاشعور..

* * *

(17)

يا حبييتي..

في مساءٍ مُخَملي

ستكونين أنتِ أجمل أقمار السماءِ

ستكونين عروسةً

يحضنها الفستانُ الأبيضُ ويقبّلُ يديها الياسمين..

ستكونين الوردةَ البيضاء التي

يتمايلُ بين أوراقها الغنْجُ والدلعُ

ستكونين وردةً لطالما جذبني ريحانها

ولطالما تمنيتُ استنشاق عِطرها

* * *

في ذلك المساء يا جميلة

ستغارُ منك قبيلة!

كيف أخذتي جمال نساءها العتيق البدوي؟

كيف فتنّتي رجالها البواسل الشُّجعانَ بأهداب عينيك؟

* * *

في ذلك المساء يا رقيقة
سينتثر الوردُ حولك
وستتعالى الدعواتُ لكِ
سيغنيّ باسمكِ
وسترقصُ الفتياتُ فرحاً بكِ

* * *

في ذلك المساء يا شهية
سيخجلانِ خداكِ كثيراً
خداكِ اللذانِ تمنيتُ تقبيلهما كثيراً
وسيبتسمُ ثغركِ كثيراً
ثغركِ الذي تمنيتُ تذوقه كثيراً

* * *

في ذلك المساء يا لذيذة
ستمشين على خجلٍ

خطوةٌ تلوى الخطوة
وعلى مسرحٍ مملوءٍ بالوردِ
ستجلسين مع رجلٍ..... غيري!

* * *

في ذلك المساء يا حبيبتي
رجلٌ سعيدٌ موفقٌ محظوظٌ
أكرهه أنا كثيراً كثيراً
رجلٌ غدر بي..
رجلٌ تغاضى عن كلِّ النساءِ
واختاركِ أنتِ يا كلِّ نسائي
رجلٌ أخذك مني
وتركني وحيداً دونك

* * *

في ذلك المساء يا ملكتي
سيملُكُ غيري

وسينفطرُ قلبي

وسأنقسمُ لنصفين

نصفٌ سعيدٌ جداً لكِ

ونصفٌ حزينٌ جداً دونكِ

نصفٌ يتلو الدعواتِ لعينيكِ

ونصفٌ يتلو اللعناتِ على من أخذكِ مني

وما بين انقسامي ونصفيّ

سأموت أنا، سأموت قهراً أنا

وفي موتي

حبٌ خذل منكِ يا... محبوبتي!

يحزنني أني أحاول الآن كتابة نهايةٍ تليقُ بكِ.. يحزنني أني أكتبُ
نهاية قصةِ عشقنا العذبة وأنني بعدما أنتهي من كتابتها سأعودُ لأكتبكِ
مجدداً فمَنْذُ أن رحلتِ وأنا لا أعرفُ غير الكتابة طريقاً أستقلهُ لأهْوِرَ
على روعي من وطأةِ الحزنِ..

هل هذهِ النهاية التي كنا نطمح لها؟ نهاية لا تجمعنا في بيتٍ صغير
ومع أطفالٍ ينادون علينا بأمي وأبي؟ نهاية لا تمطرُ فيها السماءُ
لتختبئي تحت مظلتني.. نهاية لا برد فيها لتقتربي وتلتصقي بي، أنا

معطفك الحزين.. نهاية تجعلني أتمنى لو أنني خلقت جمادًا لا يعرف
معنى المشاعر الحزينة المتراكمة في صوتي ولا يأبه بتقلبات الزمن، يظل
واقفًا صامدًا أمام الرياح حتى وإن أكلت أجزاءه...

النسيان، لص ماكر في اختيار ضحاياه، لا يسرق منك ما لا تريد
أن يرحل، ويختار تلك الذكرى التي تريدها أن تبقى.. يسرق لحظات
الفرح منك ويوهمك أن لم تذق حلو السعادة طوال أيام حياتك
ويتجاهل أطراف الحزن التي ترهقك بمشاكساتها وبقفزها أمامك..

أدهشتني قسوتك التي لم أعدها منك من قبل، أدهشتني أفلاتك
المفاجئ لحبل الحب بيننا، ذاك الذي شدته كثيرًا بالرجاء وبالندم على
كل ليالي الغياب حتى أمسكت طرفه الآخر الذي كان خاليًا منك..

تكبر في صدري صحراء غيابك وتمتد من يساري إلى يميني بأ
غيوم تبشر بهطولك.. تبشر بعودتك وحتى وإن طار انتظاري لمطرك..

قرار رحيلك كان ظالمًا وقاسيًا، قرار لا استئناف فيه.. وبيدك اعتمد
ورقة ضياعي بأربعة شهود يؤكدون أنك أنت يا محبوبتي أصبحت حرة
على غيري وحرامًا على الحب الذي أكنه لك في فؤادي..

إنني مريض بك.. مريض يدرك أن الشفاء منك صعب جدًا، بل
مستحيل.. فما أنجبتة سنين بعدك من تعلق بالماضي يجعل هذا القل
يدرك أن دواءه هو عودتك والتي هي أيضًا أصبحت مستحيلة.. فكيف
تعودين وأنت الآن أم أرضعت طفلين، وأنا أب أنجب حنيئًا!

هكذا هي دنيانا يا حنيني، لم تعطنا ما نريد، ولم تحاول كسب ودنا
بلقاءٍ آخر غير ذلك الذي جمعني في ليلة زفافك.. في ليلة اعتكافي علم
رصيف مغادرتي النهائية من حياتك.. هل تذكرين ما حدث تلك الليلة؟..
كنتُ تمشين متأبطة ذراع ذلك الأبكم.. فرحة به وكأنه ذاك الفارسُ الذ
حلمت به كثيرًا.. وكنتُ أنا أتأمل مشهد ضياعي من على بعد مساه
عشرة أقدامٍ ومئة دمةٍ وألف أه.. ماذا لو أنني اقتربتُ منكما؟ ماذا ل
أنني هناكما بهذا المجدِ وصافحتُ للمرة الأخيرة.. هل سأعود ويدي فم
مكانها؟.. هل سيعودُ جسدي وروحي لا زالت محبوسةً به؟.. ها أنا أنظرُ
إليك من بعيدٍ، أراك تجرّين وراءك فستانك الأبيض، وأشعرُ بأنك تجرّ
صدري العاري على ترابٍ القهر.. ولحقتُ بكُما إلى هناك، إلى ذلك
المكان الذي سيعلنُ رسميًا بأنكما زوجان.. وظللتُ هناك وحدي في عتم
الليل أستمعُ لشيطاني الذي يسترقُ النظر لنافذتك فيعودُ ويخبرُني أ
ذاك الأبكم المحظوظ طمس نقوش شفاهي على رقبتك وبدّلها بألوار
ممزوجة بالأحمر والزهري..

هكذا هو قدرنا، أن أحبّك ثم أراك ترحلين أمامي بالفستان الأبيض
الذي ارتديته لرجلٍ آخر غيري.. رحلتُ وظللتُ أنا هنا وحدي أردمُ حفر
حبي لك التي تتسعُ كلما أليتُ فيها ذكراك وتلتهمني أنا الذي لا يعرف
كيف أنساك..

أربعُ سنين من الفراقٍ ولا أزال أذكرُك.. تبا لذاكرتي ما أحقرها، ت

لها ما تزال تحتفظ بكِ على جدرانها وتتيقن من أعاصير النسيان
تتمسك بكِ وكأنكِ أجمل لحظاتها وآخر دقائق سعادتها..

أربع سنين من الفراق، لم أمت فيها، بل عشتُ بقلبٍ ميتٍ وخائبٍ ،
معاني الحب.. وأنتِ سارت حياتكُ على نحوٍ جيدٍ، فقد أخبروني أنا
أنجبتِ وأن طفلتك ولدتا بصوتكِ الضائع، وأنهما ألغتا الهدوء الذي
يسكنُ زوايا منزلكِ بصوتيهما العذبين.. أخبروني أنني أهلكُ نفسي
بالوقوف على أطلالكِ، ويجب عليَّ أن أنساكِ وأن أطرق أبواب الفرارِ
دونكِ وأنتِ لم تستحقي حبي، ولو أنكِ كنتِ أهلاً له لما يأستي وقط
صلة الحب بيني وبينكِ.. أخبروني أنني سأموت وحيداً إن لم أنسكِ وأر
حياتي فانيةً ولا يجدر بها أن تنقضي وأنا متمسكُ بزمام الماضي.. ول
يعلموا أنكِ فتاةٌ لا يمكن أن تُنسى.. وأن ما كان بيننا أظهرُ من أن
يُنسى..

أهٍ لو أنكِ تعودين وتعيدين لي سنيني الضائعة دونكِ.. أهٍ لو أنن
أمتلكُ آلةَ الزمنِ فأعودُ بها كلما ضاقت السماءُ في عيني إلى لحظ
قبلتنا الأولى.. أهٍ لو أنني كنتُ أعلم الغيب لما أحبتُ ولما أبحرتُ في بد
العشق الغدار..

صدقيني يا حنيني، أتعبني الحنينُ إليك.. حاضرةٌ أنتِ ف
أحلامي.. أحلامي تلك التي صارت كوابيس حينما تأتين فيها فأصحو
ولا ألقاك في واقعي وأعلم أنكِ هناكِ نائمةً في حضنٍ آخر كان أجدر بـ

مني.. منذُ أول أيامِ حُبنا وأنا أعلمُ جيداً أنكِ نقطةُ التحولِ التي
انتظرتها ثلاثين عاماً وأنكِ واحدتي وأن من بعدكِ إنأتُ لا يسمُنُّ و
يغنين من جوع!

يشتدُّ حزني كلما ذكرتُ أن مجتمعنا كله وقف ضدنا صارخاً «لا
يليقُ برجلٍ سليمٍ أن يرتبط بأنثى ناقصة» وكأنه يضعُ لنا معاييرًا للحد
لا يجدرُ أن نُخلَّ بها لننال تبريكاته بهذا الحب.. يحزنني أن امرأةً مثلاً
طاغية الجمال وحسنة الصفات لا تملكُ فرصاً كثيرةً لتحيا كما تريدُ ومـ
من تريدُ، وتجبرُ على أن تكون لمن هم على شاكلتها.. أجرموا في حقنا
يا حبيبتِي، أبعدونا عن بعضنا ببندِ «لا يصلحُ» أو «لا يليقُ» وتجاهلوا
أننا معاً نستطيعُ أن نتخطى عقبة الصوتِ لأكون لكِ صوتكِ وتكونين لـ
صمتي..

اشتقتُ لكِ.. أتعلمين؟ صهرني الحنينُ لكِ.. أتدركين؟
ماتت زهورُ مدينتي في يديَّ، بعدما جفت خطوطها من وصلكِ.
ذبلت حدائقُ الكلامِ في صدري وأصبح الصمتُ أجمل صفاتي، يظن
الناسُ حكمةً وهيبةً، وأعرفُ أنه حديثٌ طويلٌ لا يستحقُّ أن يحكى إلا لكِ.
تثيرُ اشتهائي نجوم الليل للكتابةِ إليك، تسقطُ نجمةٌ من السماء لتني
لي سطور دفترتي وكما بردت غادرتني وجاءت نجمةٌ أخرى تبتسمُ بخجل
وتجلسُ على كتفي فأغرقُ أنا بكلماتي وبهذياني.. وأدركتُ مع كلِّ سد
أكتبهُ لكِ، أنكِ المعادلةُ الأصعبُ في حياتي، أنكِ المرحلةُ الأجملُ ه

مراحل عمري، وأنتِ واحدتي.. واحدتي.. واحدتي!

ستبقى هذه الأوراقُ غيرُ مكتملةٍ، ينقصُها الجزء الآخر.. ينقصُها
أوراقك يا حنيني ... ولا أدري ماذا سيحلُّ بهذه الأوراق.. أين سأخبئُها
ومتى سأظهرُها ومن سيقراها.. لا يهمني مصير هذه الأوراق، ولكن إذ
مر يومٌ ووصلت أوراقِي ليدك، فأرجوك لا تقرأها.. لا تقرأني حزني لكم
لا تحزن عيناك..
وإنني أحبُّ....

(جاء صوت جرس الباب ليقتلع الحرف الأخير من كلمة الحب.. فتح
هتان باب شقيقته التي اتخذها ملجأً له عندما يكتبُ لحنين.. أو عندما
يلتقي بفتاةٍ أخرى!)
فَتَحَ الباب.. وقال هتان:
- أهلا حبيبتي.. تأخرتِ هذه المرة.. يا ديا لا!

* * *

انتهت

May 2013 16

محمد السالم

2.Pola Muzyka



الرجاء شراء الكتاب من المكتبات
دعها للكاتب ولكي لا تضيع مجهوداته سدي!

مع تحيات فريق صفحة كتب
www.facebook.com/the.Boooks